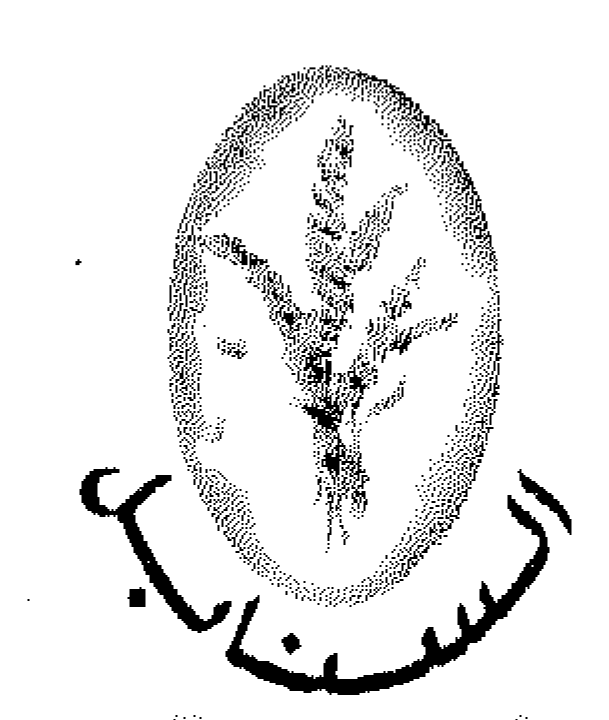


رحلة كريم الدين

المغامرات المثيرة

٤

GIFTS OF 2004

SIDA GRANT

رحلة كريم الدين



رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : **شركة أبو الهول للنشر**

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت: ٣٩٢٥٦٠٨ ، ٣٩٢٤٦١٦

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت: ٤٩٢٤٨٣٩

الطبعة الأولى ١٩٩٤ رقم الإيداع : ١٩٩٣ / ٧٥٠٨

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠١٣٦ - ٩

طبع في دار نوبار للطباعة بالقاهرة

شباب

المغامرات المثيرة

رحلة كريم الدين



تأليف : مجدي صابر

رسوم : شكري هشام



الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الفصل الأول
ضَياعُ الثَّرْوَةِ

في قَديمِ الزَّمانِ كانَ يَعيشُ شابٌّ يُدْعى « كَريم الدّينِ » ، وَرِثَ عَنْ أبيهِ مالاً كَثيراً وَضِياعًا وَقُصوراً وَجَواهِرَ . وَمَعَ ذَلِكَ عاشَ مُتَبَطِّلاً لاهِيًا ، لا شاغِلَ لَهُ غَيْرُ إنْفاقِ المالِ وَالتَّمَتُّعِ بِكُلِّ أطايِبِ الحَياةِ ، دونَ أنْ يُفَكِّرَ في تَنْمِيَةِ مالِهِ ، أوْ الانْشِغالِ بِعَمَلٍ .

وَكانَ والِدُ كَريمِ الدّينِ هُوَ رَئيسَ التُّجّارِ السّابِقَ « حكيم الدّين ».

وَقَدْ كانَ رَجُلاً حَكيمًا وَتاجِراً ماهِراً وَرَحّالَةً عَلامَةً ، جابَ بِلاداً كَثيرَةً ، وَرَسَتْ سُفُنُهُ عَلى شَواطِئَ بَعيدَةٍ ، وَأتْقَنَ لُغاتٍ عَديدَةً ؛ وَمِنْ ثَمَّ صارَ مَثَلاً يُحْتَذى في الهِمَّةِ وَالحِكْمَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَالقُدْرَةِ عَلى التَّغَلُّبِ عَلى كُلِّ الصِّعابِ .

غَيْرَ أنَّ كَريمَ الدّينِ لَمْ يَرِثْ مِنْ صِفاتِ والِدِهِ شَيْئًا ، بَلْ كانَ عَلى النَّقيضِ تَمامًا : كَسولاً ، خائِرَ الهِمَّةِ ، لا تَقودُهُ حِكْمَةٌ أوْ

يَهْدِيهِ عِلْمٌ .

وَقَدْ أَلِفَ السَّهَرَ لَيْلاً مَعَ أَصْحابِهِ حَتّى الفَجْرِ ، فَكانَ لا يَنامُ إِلّا وَطُلوعَ الشَّمْسِ ، وَلا يَسْتَيْقِظُ قَبْلَ غُروبِها .

وَحينَما كانَ التُّجّارُ مِنْ أَصْدِقاءِ والِدِهِ يَلومونَهُ عَلى تَبَطُّلِهِ وَخَوَرِ هِمَّتِهِ ، وَقَدْ كانَ والِدُهُ - رَحِمَهُ اللّهُ - تاجِراً أَريباً ، وَمَلّاحاً نَجيباً ، وَحَكيماً أَديباً ؛ كانَ كَريمُ الدّينِ يُجيبُهُمْ هازِئاً :

« هَلْ تُريدونَ مِنّي أَنْ أَشْقى وَأَكِدَّ وَأَجوبَ البِحارَ وَأَغْزوَ الجُزُرَ وَأُحارِبَ اللُّصوصَ وَأَتَعَلَّمَ اللُّغاتِ لِأَجْلِ كَسْبِ المالِ ؟ فَإِنْ كُنْتُ أَمْتَلِكُ مِنْهُ ما يَفوقُ الحَصْرَ ؛ فَما حاجَتي إِذاً لِمِثْلِ هَذِهِ الأُمورِ ؟ وَما فائِدَةُ المالِ الَّذي أَمْتَلِكُهُ إِذا لَمْ أُنْفِقْهُ في التَّمَتُّعِ بِمَباهِجِ الحَياةِ ؟» فَما يَكونُ مِنْ رِفاقِ أَبيهِ الرّاحِلِ إِلّا أَنْ يَنْصَرِفوا آسِفينَ عَلى أَنْ يَئولَ حَصادُ سِني رَئيسِ التُّجّارِ إِلى هَذا السَّفيهِ .

وَمَرَّتْ أَعْوامٌ بِكَريمِ الدّينِ وَهُوَ عَلى تِلْكَ الحالِ ، يُنْفِقُ في غَيْرِ تَعَقُّلٍ أَوِ اعْتِدالٍ ، حَتّى نَضَبَ مَعينُ المالِ .

وَذاتَ يَوْمٍ اسْتَيْقَظَ كَريمُ الدّينِ - كَدَأْبِهِ - بَعْدَ العَصْرِ ، وَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ فَأَقْبَلَ القائِمُ عَلى أَمْوالِهِ ، فَسَأَلَ كَريمُ الدّينِ دَهِشاً :
« أَيْنَ الخَدَمُ وَالسُّعاةُ وَالطُّهاةُ ؟ لِماذا لَمْ يُلَبِّ أَحَدٌ نِدائي ؟»

أجابَهُ وَكيلُ أعْمالِهِ : « لَقَدْ رَحَلوا جَميعاً في الصَّباحِ ؛ لأنَّهُمْ لَمْ يَأخُذوا أجورَهُمْ مُنْذُ شُهورٍ .»

تَعَجَّبَ كَريمُ الدّينِ وَقالَ : « وَلِماذا لَمْ يَحْصُلوا عَلى أجورِهِمْ ، وَالمالُ وَفيرٌ وَالخَيْرُ عَميمٌ ؟»

أجابَهُ وَكيلُهُ : « ذَلِكَ كانَ فيما مَضى ، يا سَيِّدي ، حينَما كانَتْ خَزائِنُكَ مُكْتَظَّةً بِالمالِ وَالجَواهِرِ ، وَقُصورُكَ حافِلَةً بِالمَوائِدِ . وَلَكِنَّكَ رُحْتَ تُنْفِقُ المالَ عَلى أصْدِقائِكَ حَتّى نَفِدَ ، وَتُهْدي الجَواهِرَ لِصَديقاتِكَ حَتّى خَلَتْ مِنْها الخَزائِنُ . أمّا قُصورُكَ فَرُحْنا نَبيعُها الواحِدَ بَعْدَ الآخَرِ ، حَتّى لَمْ يَبْقَ مِنْها سِوى هَذا القَصْرِ ، الَّذي بِعْنا مَفْروشاتِهِ وَتُحَفَهُ الَّتي جَمَعَها والِدُكَ حَكيمُ الدّينِ مِنْ كُلِّ الأنْحاءِ ؛ فَلَمْ تَبْقَ حُجْرَةٌ مَفْروشَةٌ غَيْرُ حُجْرَتِكَ .»

غَضِبَ كَريمُ الدّينِ وَصاحَ : « كَيْفَ حَدَثَ هَذا ، دونَ أنْ أعْلَمَ بِهِ ؟»

أجابَهُ وَكيلُهُ : « حَدَثَ ذَلِكَ ، يا سَيِّدي ، خِلالَ شُهورٍ طَويلَةٍ ، كُنْتُ أحاوِلُ فيها مُقابَلَتَكَ وَإخْبارَكَ بِما يَحْدُثُ وَيَجْري ، وَلَكِنّي كُنْتُ أجِدُكَ نائِماً بِالنَّهارِ ، أوْ ساهِرًا لاهِياً بِاللَّيْلِ ، غَيْرَ راغِبٍ في الاِسْتِماعِ والإنْصاتِ ، وَكُنْتُ مُضْطَرًّا لأنْ أُلَبِّيَ كُلَّ مَطْلَبٍ لَكَ ،

بَعْدَ فَراغِ النُّقودِ ؛ فَبِعْتُ القُصورَ وَالضِّياعَ وَالأَمْلاكَ ، وَفَرْشَ الحُجُراتِ ، وَالمَتاعَ ، حَتّى تَعَذَّرَ عَلَيْنا دَفْعُ أُجْرَةِ الخَدَمِ ؛ فَرَحلوا عَنِ القَصْرِ هَذا الصَّباحَ .»

بُهِتَ كَريمُ الدّينِ ، وَانْعَقَدَ لِسانُهُ . وَفَجْأَةً انْدَفَعَ إلى الحُجْرَةِ عَدَدٌ مِنَ الحَمّالينَ الأَشِدّاءِ ، وَراحوا يَنْقُلونَ مَتاعَ الحُجْرَةِ وَلَمْ يَتْرُكوا شَيْئًا ؛ فَصاحَ بِهِمْ كَريمُ الدّينِ في ذُهولٍ : « ماذا تَفْعَلونَ أَيُّها الأَشْقِياءُ ؟ وَإِلى أَيْنَ تَأْخُذونَ هَذِهِ الأَشْياءَ ؟»

أَجابَهُ وَكيلُ أَعْمالِهِ : « لَقَدْ نَسيتُ إِخْبارَكَ ، يا سَيِّدي ، بِأَنَّني بِعْتُ هَذا المَتاعَ في الصَّباحِ ؛ لِأُسَدِّدَ بِثَمَنِهِ ما تَناوَلْتَهُ وَأَصْدِقاؤُكَ مِنْ طَعامٍ وَشَرابٍ في مَساءِ الأَمْسِ .» فَأُسْقِطَ في يَدِ كَريمِ الدّينِ ، وَلَمْ يَجِدْ ما يَنْطِقُ بِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ فَرَغَ الحَمّالونَ مِنْ حَمْلِ المَتاعِ ، تَأَمَّلَ كَريمُ الدّينِ الحَوائِطَ العارِيَةَ وَالأَرْضِيَّةَ الخالِيَةَ ، وَقالَ كَأَنَّهُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ : « لَمْ يَبْقَ لي غَيْرُ جُدْرانِ هَذا القَصْرِ ، كَأَنَّها أَطْلالُ عِزٍّ قَديمٍ .»

قالَ الوَكيلُ : « ثَمَّةَ كُتُبٌ كَثيرَةٌ حافِلَةٌ بِالمَعارِفِ وَالعُلومِ ، تَمْتَلِئُ بِها مَخازِنُ القَصْرِ ، وَهِيَ أَثْمَنُ مِنَ الجَواهِرِ وَاللَّآلِئِ .»

قالَ كَريمُ الدّينِ ساخِرًا : « ماذا تَقولُ أَيُّها الخَرِفُ ؟ ماذا أَفْعَلُ

بِهَذِهِ الكُتُبِ ؟ هَلْ سَتَمْنَحُني صَفَحاتُها طَعاماً وَشَراباً ، أَمْ أَبيعُها بِالذَّهَبِ وَالجَواهِرِ ؟»

وَ وَضَعَ رَأْسَهُ بَيْن كَفَّيْهِ ، وَقالَ مُتَأَلِّماً : « كَيْفَ سَتَكونُ حَياتي بَعْدَ الآنِ ؟ وَماذا أَفْعَلُ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مالي وَضاعَ إِرْثي ؟»

قالَ الوَكيلُ : « الأَفْضَلُ أَنْ تَبْحَثَ لَكَ عَنْ عَمَلٍ ، يا سَيِّدي ؛ لِتَتَعَيَّشَ مِنْهُ ، وَرُبَّما يُعَوِّضُكَ مَجْهودُكَ وَكَدُّكَ عَمّا ضاعَ .»

اِبْتَسَمَ كَريمُ الدّينِ في مَرارَةٍ وَقالَ : « أَيُّ عَمَلٍ هَذا الَّذي سَيُعيدُ لي ما ضاعَ ، وَأَنا لا أُجيدُ أَيَّ عَمَلٍ ؟ وَما هُوَ العَمَلُ الَّذي سَيَجْعَلُني أَكْسِبُ آلافَ الدّيناراتِ ؛ لأُعَوِّضَ ما فَقَدْتُهُ ؟»

قالَ الوَكيلُ : « لا تَنْسَ ، يا سَيِّدي ، أَنَّ والِدَكَ الرّاحِلَ ، رَئيسَ التُّجّارِ ، بَدَأَ حَياتَهُ عامِلاً في مَتْجَرٍ لِلأَقْمِشَةِ ، قَبْلَ أَنْ يَمْتَلِكَ المَتْجَرَ بِكَدِّهِ ؛ ثُمَّ صارَ كَبيراً لِلتُّجّارِ ، وَعَبَرَ المُحيطاتِ وَالأَنْهارَ ، وَامْتَلَكَ ما لا يَخْطِرُ عَلى البالِ .»

هَزَّ كَريمُ الدّينِ رَأْسَهُ وَقالَ : « لا ، هَذا مُسْتَحيلٌ ! إِنَّني لا أَفْقَهُ شَيْئاً في التِّجارَةِ أَوِ المِلاحَةِ ، بَلْ لا أَفْقَهُ شَيْئاً في أَيِّ أَمْرٍ ، وَلا أُجيدُ غَيْرَ إِنْفاقِ النُّقودِ . وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ أَحْصُلُ عَلَيْها لِكَيْ أُنْفِقَها ؟»



وَهَبَّ كَريمُ الدّينِ واقِفاً بَعْدَ لَحْظَةٍ ، وَقَدْ تَألَّقَتْ عَيْناهُ بِبَريقِ السُّرورِ ، وَقالَ : « كَيْفَ نَسيتُ هَذا الحَلَّ ؟ إنَّ لِيَ العَديدَ مِنَ الأصْدِقاءِ ، ما أكْثَرَ ما أهْدَيْتُهُمْ مِنْ مالي وَضَمَّتْهُمْ مَوائِدي ! وَلَيْسَ عَلَيَّ غَيْرُ اللُّجوءِ إلَيْهِمْ ؛ لِيُقْرِضوني بَعْضَ المالِ ، أوْ يَهَبوهُ لي عَلى سَبيلِ الهَدِيَّةِ .»

وَانْطَلَقَ مِنْ فَوْرِهِ دونَ انْتِظارِ نَصيحَةِ وَكيلِ أعْمالِهِ . وَلَكِنَّهُ عادَ بَعْدَ مُدَّةٍ وَقَدِ اكْفَهَرَّتْ مَلامِحُهُ وَبانَ الغَضَبُ في عَيْنَيْهِ ، وَقالَ لِوَكيلِهِ : « لَقَدْ تَهَرَّبَ مِنّي أصْدِقائي ؛ فَمِنْهُمْ مَن اعْتَذَرَ بِفَقْرِهِ وَعَوَزِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَعَلَّلَ بِأنَّ مالَهُ كُلَّهُ أوْدَعَهُ في تِجارَةٍ عَبْرَ البِحارِ ، أوْ بِخَسارَةٍ ألَمَّتْ بِهِ ، وَرَفَضوا جَميعاً إقْراضي دِرْهَماً واحِداً ، بِالرَّغْمِ مِنْ تَأكُّدي مِنْ يُسْرِهِمْ وَغِناهُمْ . كَمْ كُنْتُ غَبِيّاً وَمُبَذِّراً وَأنا أنْفِقُ عَلَيْهِمْ نُقودي وَمالي كُلَّ لَيْلَةٍ دونَ حِسابٍ ، وَأظُنُّهُمْ مِنْ أخْلَصِ الأصْدِقاءِ !»

قالَ الوَكيلُ : « قَدْ تَعَلَّمْتَ الدَّرْسَ الأوَّلَ في حَياتِكَ ، يا سَيِّدي . وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَهُ مُتَأخِّراً لِلأسَفِ الشَّديدِ ، وَلَنْ يُفيدَكَ الآنَ بِشَيْءٍ ، فَلَكَمْ حاوَلْتُ تَبْصيرَكَ بِهَذِهِ الحَقيقَةِ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَسْتَمِعْ لي قَطُّ ، وَلَمْ تُعِرْ أذُنَيْكَ لِأيِّ ناصِحٍ .»

لَمْ يَرُدَّ كَريمُ الدّينِ ، وَبَدا عَلَيْهِ الكَرْبُ الشَّديدُ ، ثُمَّ جَلَسَ عَلى

الأَرْض وَراحَ في تَفْكيرٍ عَميقٍ ، وَ وَكيلُهُ يُراقِبُهُ صامِتاً . وَرَفَعَ كَريمُ الدّين رَأْسَهُ وَقالَ : « آهِ ! لَوْ تَمكَّنْتُ مِنَ الحُصولِ عَلى مِصْباحِ عَلاءِ الدّينِ ؛ لاسْتَدْعَيْتُ الجِنِّيَّ السّاكِنَ فيهِ ، وَأَمَرْتُهُ أَنْ يَجْلُبَ لي مِنَ المالِ قَدْرَ ما يَسْتَطيعُ .»

هَزَّ الوَكيلُ رَأْسَهُ ساخِراً ، وَقالَ : « لا أَحَدَ يَمْتَلِكُ هَذا المِصْباحَ الآنَ ؛ فَلا وُجودَ لَهُ إلّا في الأَساطيرِ .»

لَمَعَتْ عَيْنا كَريمِ الدّينِ ، وَتَسارَعَتْ أَنْفاسُهُ في إثارَةٍ بالِغَةٍ ، وَهُوَ يَقولُ :

« إنَّني سَمِعْتُ عَنْ ناسِكٍ عَجوزٍ قَدِ انْقَطَعَ لِعِبادَةِ اللهِ فَوْقَ الجِبالِ ، وَهُوَ قادِرٌ عَلى إخْضاعِ الطُّيورِ وَالحَيَواناتِ . وَيُقالُ إنَّهُ يَقْدِرُ عَلى فِعْلِ أَشْياءَ كَثيرَةٍ ، وَإنَّ القَصْديرَ وَالنُّحاسَ وَالتُّرابَ كُلُّها تَتَحَوَّلُ إلى ذَهَبٍ وَلآلِئَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَإذا ذَهَبْتُ إلَيْهِ وَرَجَوْتُهُ أَنْ يُعَلِّمَني كَيْفَ يَفْعَلُ ذَلِكَ ؛ أَمْكَنَني أَنْ أُحَوِّلَ كُلَّ ما تَقَعُ عَلَيْهِ يَدايَ إلى ذَهَبٍ ؛ فَأَثْرِيَ ثَراءً فاحِشاً .»

زَوى الوَكيلُ ما بَيْنَ حاجِبَيْهِ دَهْشَةً ، وَقالَ : « لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ هَذا النّاسِكِ وَأَفْعالِهِ العَجيبَةِ مُنْذُ سِنينَ بَعيدَةٍ ، يا سَيِّدي . وَلَكِنْ يُقالُ إنَّهُ يَعيشُ فَوْقَ جَبَلٍ بَعيدٍ جِدًّا ، يُسَمّى جَبَلَ الحِكْمَةِ ، وَيَتَطَلَّبُ

الوُصولُ إِلَيْهِ سَفَراً مُتَواصِلاً ، عَلى ظُهورِ الجِمالِ وَالبِغالِ ، وَاجْتِيازَ المُحيطاتِ وَالبِحارِ ، وَعُبورَ الوِهادِ وَالجِبالِ ، وَمُلاقاةَ مَخْلوقاتٍ عَجيبَةٍ: مَرَدَةٍ مُتَوَحِّشينَ وَأَقْزامٍ . وَقَدْ حاوَلَ كَثيرونَ بُلوغَ مَكانِهِ ، فَفَشِلوا في ذَلِكَ ، وَماتوا في الطَّريقِ الوَعْرِ ، أَوْ عَلى أَيْدي هَذِهِ المَخْلوقاتِ المُتَوَحِّشَةِ .»

صاحَ كَريمُ الدّينِ في حَماسٍ : « لا يَهُمُّني ما حَدَثَ لِلآخَرينَ ، فَسَوْفَ أَبْذُلُ كُلَّ جَهْدي لِلْوُصولِ إِلى مَكانِ هَذا النّاسِكِ ، وَلَوْ كانَ يَقَعُ في نِهايَةِ العالَمِ ؛ فَلا بُدَّ أَنْ أَبْلُغَ مَكانَهُ مَهْما كانَتِ المَخاطِرُ الَّتي سَأُلاقيها ، ما دُمْتُ سَأَصِلُ في النِّهايَةِ إِلى الثَّراءِ الَّذي أَنْشُدُهُ مِنْ خِلالِهِ . وَسَوْفَ أَبيعُ هَذا القَصْرَ الَّذي تَبَقّى مِنْ أَمْلاكِ أَبي ، وَأُنْفِقُ ثَمَنَهُ عَلى رِحْلَتي . فَهَيّا ابْحَثْ لي عَنْ مُشْتَرٍ لِهَذا القَصْرِ .»

وَذَهَبَ الوَكيلُ وَعادَ وَمَعَهُ المُشْتَري ، فَقَبِلَ كَريمُ الدّينِ ما عَرَضَهُ ، وَتَناوَلَ ثَمَنَ قَصْرِهِ أَلْفَ دينارٍ مِنَ الذَّهَبِ ، وَضَعَها في حِزامٍ عَريضٍ أَخْفاهُ تَحْتَ مَلابِسِهِ حَوْلَ بَطْنِهِ ، وَاشْتَرى جَواداً قَوِيًّا .

قالَ لِوَكيلِهِ وَهُوَ يَتَأَهَّبُ لِلرَّحيلِ : « انْتَظِرْني في هَذا المَكانِ وَلَوْ طالَ الزَّمانُ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَنْ يَثْنِيَني عَنِ السَّعْيِ لِتَحقيقِ هَدَفي غَيْرُ المَوْتِ .»

أطْرَقَ الوَكيلُ بِرَأْسِهِ ، حَزيناً لِفِراقِ كَريمِ الدّينِ ، ثُمَّ قالَ لَهُ: « لَقَدْ بِعْنا القَصْرَ ، يا سَيِّدي ، وَلَكِنَّنا لَمْ نَبِعْ ما يَحْتَويهِ مِنْ كُتُبٍ عَديدَةٍ ، فَماذا أَفْعَلُ بِها ؟ »

أجابَهُ كَريمُ الدّينِ ساخِراً : « فَلْتَهَبْها لِباعَةِ الفاكِهَةِ ، لِيَبيعوا فيها بِضاعَتَهُمْ ، أَوْ لِتُغْرِقْها في النَّهْرِ ، أَوْ تُلْقِها حَطَباً لِلنّيرانِ . »

وَامْتَطى كَريمُ الدّينِ صَهْوَةَ جَوادِهِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ ، وَهُوَ يَلْكُزُهُ بِقُوَّةٍ ، فَانْدَفَعَ الجَوادُ بِكُلِّ سُرْعَتِهِ نَحْوَ صَحْراءِ التّيهِ ، الَّتي كانَتْ أَوَّلَ ما يَتَعَيَّنُ عَلى كَريمِ الدّينِ أَنْ يَجْتازَهُ في رِحْلَتِهِ غَيْرِ المَأْمونَةِ .

الفصل الثاني

صَحْراءُ التّيهِ

اِسْتَمَرَّ الجَوادُ في رَكْضِهِ أيّاماً عَديدَةً . وَكانَ كَريمُ الدّينِ يَرْكَبُهُ نَهاراً وَيَسْتَريحُ لَيْلاً . وَبِسَبَبِ قِلَّةِ خِبْرَتِهِ في رُكوبِ الجِيادِ وَمُعامَلَتِها، ماتَ جَوادُهُ سَريعاً في صَحْراءَ قاحِلَةٍ ، لا زَرْعَ فيها وَلا ماءَ . وَنَفِدَ ما حَمَلَهُ كَريمُ الدّينِ مَعَهُ مِنْ ماءٍ ، في نِصْفِ الوَقْتِ الَّذي كانَ مُقَدَّراً لَهُ .

تَحَيَّرَ كَريمُ الدّينِ ، وَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ ، وَقالَ لِنَفْسِهِ : « ما العَمَلُ الآنَ وَقَدْ ماتَ الجَوادُ ، وَلا وَسيلَةَ لِمُغادَرَتي هَذِهِ الصَّحْراءَ ؟ لَقَدْ ضَلَلْتُ طَريقي، وَلا أَدْري في أَيِّ اتِّجاهٍ أَسيرُ لأَصِلَ إِلى نِهايَتِها ، وَقَدْ أَخَذَ مِنّي العَطَشُ كُلَّ مَأْخَذٍ ، وَأَشْعُرُ أَنَّ شَفَتَيَّ تَشَقَّقَتا لِشِدَّةِ جَفافِهِما .»

وَأَخَذَ يَسيرُ في الرِّمالِ الكَثيفَةِ ، وَهُوَ يَنْتَزِعُ مِنْها قَدَمَيْهِ بِمَشَقَّةٍ .



وَسَرْعانَ ما أَلْهَبَتِ الشَّمْسُ الحارِقَةُ وَالرِّمالُ المُلْتَهِبَةُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ ، فَشَعَرَ كَأَنَّما اشْتَعَلَتْ فيهِ النّارُ ، وَجَفَّ حَلْقُهُ تَماماً ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلى السَّيْرِ خُطْوَةً أخرى ، فَجَلَسَ خَلْفَ بَعْضِ أَشْجارِ الصَّبّارِ الكَبيرَةِ ، يَحْتَمي بِظِلِّها مِنَ الحَرارَةِ المُتَّقِدَةِ . وَعِنْدَ المَساءِ أَوْشَكَ عَلى الهَلاكِ عَطَشاً وَقَدْ أَخَذَتْهُ الحُمّى ، فَصاحَ في وَهْنٍ : « ماءً.. أُريدُ ماءً. إِنَّني مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَدْفَعَ عَشَرَةَ دَنانيرَ ذَهَبِيَّةٍ مُقابِلَ جُرْعَةِ ماءٍ ، بَلْ مِئَةَ دينارٍ .. بَلْ كُلَّ ما أَمْلِكُ . »

وَسَقَطَ فاقِداً وَعْيَهُ وَهُوَ يَهْذي بِكَلِماتٍ مُخْتَلِطَةٍ . وَانْقَضى وَقْتٌ لا يَدْري مِقْدارَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ ، فَشاهَدَ نَفْسَهُ راقِداً داخِلَ

هَوْدَجٍ فَوْقَ ظَهْرِ جَمَلٍ ، يَسيرُ بِهِ سَيْرًا مُتَمَهِّلاً . وَراحَ يُحاوِلُ أَنْ يَتَذَكَّرَ ما جَرى لَهُ . كانَ آخِرَ ما وَعاهُ عَطَشُهُ الشَّديدُ وَفُقْدانُهُ لِوَعْيِهِ، بَعْدَ الحُمَّى الَّتي أَصابَتْهُ . وَأَخَذَ يَتَساءَلُ في دَهْشَةٍ عَمّا جَرى لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَعَمَّنْ وَضَعَهُ فَوْقَ ذَلِكَ الهَوْدَجِ . وَتَغَلَّبَ فُضولُهُ عَلى ضَعْفِهِ فَأَطَلَّ مِنْ بَيْنِ سَتائِرِ الهَوْدَجِ ، فَشاهَدَ قافِلَةً مِنَ الجِمالِ ، وَقَدْ سارَ الجَمَلُ الَّذي يَحْمِلُهُ في مُؤَخِّرَتِها . وَرَأى عَدَدًا مِنَ الرِّجالِ وَقَدْ أَخْفى كُلٌّ مِنْهُمْ وَجْهَهُ بِلِثامٍ لا يُظْهِرُ غَيْرَ عَيْنَيْهِ وَأَنْفِهِ ، وَقَدْ ظَهَرَ وَسْطَهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ مَخايِلُ السَّماحَةِ ، ذو لِحْيَةٍ بَيْضاءَ ، بَدا وَكَأَنَّهُ قائِدُ القافِلَةِ .

قالَ الرَّجُلُ لِرِفاقِهِ : « سَوْفَ نَتَوَقَّفُ قَليلاً عِنْدَ الواحَةِ القَريبَةِ ؛ لِإِراحَةِ الجِمالِ وَإِطْعامِها ، وَلِنَمْلأَ نَحْنُ قِرَبَنا بِالماءِ العَذْبِ .»

هَتَفَ كَريمُ الدّينِ في الشَّيْخِ ذي اللِّحْيَةِ البَيْضاءِ : « أَنْتَ أَيُّها الرَّجُلُ الطَّيِّبُ ؟ مَنْ تَكونُ ؟ وَإِلى أَيْنَ تَتَّجِهونَ بي ؟»

تَهَلَّلَ وَجْهُ الشَّيْخِ عِنْدَما شاهَدَ كَريمَ الدّينِ ، وَقالَ لَهُ: « لَقَدْ أَفَقْتَ أَخيرًا ، يا وَلَدي ، بَعْدَ أَيّامٍ مِنْ فُقْدانِكَ الوَعْيَ وَهَذَيانِكَ ؛ فَالحَمْدُ للهِ . لَقَدْ ظَنَنّا أَنَّ الحُمّى سَتَذْهَبُ بِكَ بَعْدَ أَنْ عَثَرْنا عَلَيْكَ مُصادَفَةً أَثْناءَ رَحيلِنا لَيْلاً . أَمّا عَنْ وِجْهَةِ سَيْرِنا ، فَنَحْنُ نَقْصِدُ الميناءَ

الكَبيرَ ، فَهُوَ نِهايَةُ رِحْلَتِنا ، وَسَنَبْلُغُهُ بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ بِإِذْنِ اللهِ .»

تَساءَلَ كَرِيمُ الدّينِ دَهِشاً: « وَهَلْ ظَلِلْتُ فاقِداً وَعْيي عِدَّةَ أَيّامٍ ؟ هَذا أَمْرٌ غَرِيبٌ ! فَأَنا لَمْ أَشْعُرْ بِشَيْءٍ قَطُّ ، وَكَأَنَّ ما جَرى لي ، كانَتْ حَوادِثُهُ بِالأَمْسِ فَقَطْ .»

أَجابَهُ الشَّيْخُ مُبْتَسِماً : « إِنَّ مَرِيضَ الحُمّى لا يَشْعُرُ بِشَيْءٍ حَوْلَهُ في فَتْرَةِ مَرَضِهِ . وَقَدْ قُمْنا بِرِعايَتِكَ وَتَرْطيبِ جَبْهَتِكَ بِاسْتِمْرارٍ ، وَسَقْيِكَ التَّمْرَ المُذابَ في اللَّبَنِ أَثْناءَ مَرَضِكَ .»

أَحَسَّ كَرِيمُ الدّينِ بِالامْتِنانِ ، فَقالَ لِلشَّيْخِ : « شُكْراً لَكَ أَيُّها الرَّجُلُ الطَّيِّبُ . لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَياتي بَعْدَ أَنْ أَوْشَكْتُ عَلى الهَلاكِ عَطَشاً .»

وَظَهَرَتِ الواحَةُ بَعْدَ قَليلٍ ، فَأَسْرَعَتِ القافِلَةُ صَوْبَها ، وَقَدْ دَبَّ النَّشاطُ في جِمالِها ؛ فَقَدْ أَدْرَكَتْ بِخِبْرَتِها أَنَّ الوُصولَ لِلْواحَةِ يَعْني الماءَ وَالعُشْبَ وَالرّاحَةَ في الظِّلِّ . وَتَوَقَّفَ الرَّكْبُ أَمامَ عَيْنٍ عَذْبَةٍ لِلْماءِ تَحْتَ ظِلالِ النَّخيلِ ، فَهَبَطَ كَرِيمُ الدّينِ مِنَ الهَوْدَجِ ، وَجَلَسَ مَعَ رِجالِ القافِلَةِ ، الَّذينَ تَحَلَّقوا حَوْلَهُ تَحْتَ ظِلِّ نَخيلِ الواحَةِ ، بَعْدَ أَنِ ارْتَوَوْا مِنْ مائِها العَذْبِ .

قالَ أَحَدُهُمْ : « أَخْبِرْنا بِحِكايَتِكَ ، وَما جَرى لَكَ ، وَلِماذا كُنْتَ

تَقْطَعُ هَذِهِ الصَّحْراءَ وَحْدَكَ ؟»

لَمْ يُخْبِرْهُمْ كَرِيمُ الدِّين إِلّا بِسَعْيِهِ لاجْتِيازِ الصَّحْراءِ الواسِعَةِ فَوْقَ ظَهْرِ جَوادِهِ لِعَمَلٍ خاصٍّ بِهِ .

قالَ الشَّيْخُ ذو اللِّحْيَةِ دَهِشاً : « لا أَحَدَ يَقْطَعُ مِثْلَ هَذِهِ الصَّحْراءِ بِجَوادٍ ؛ فَالجِيادُ تَعْطَشُ سَرِيعاً ، وَتَحْتاجُ لِماءٍ كَثِيرٍ لا يَتَوَفَّرُ في هَذِهِ الصَّحْراءِ ، لِذَلِكَ فَالأَفْضَلُ السَّفَرُ خِلالَها بِالجِمالِ ؛ لأَنَّها تَخْتَزِنُ الماءَ ، وَتَسْتَطِيعُ تَحَمُّلَ العَطَشِ أَيّاماً طَوِيلَةً . كَما أَنَّ أَفْضَلَ وَقْتٍ لِلسَّفَرِ خِلالَ هَذِهِ الصَّحْراءِ هُوَ اللَّيْلُ ؛ لِتَجَنُّبِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الحارِقَةِ ، الَّتي تَسْتَنْزِفُ ماءَ الإِنْسانِ ، وَتُصِيبُهُ بِالحُمّى وَالجَفافِ ، عَلى أَنْ تَرْتاحَ نَهاراً في أَقْرَبِ ظِلٍّ أَوْ داخِلَ الخِيامِ .»

شَحَبَ وَجْهُ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ وَقالَ : « إِنَّني لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ كُلَّ هَذِهِ الأَشْياءِ ؛ فَهِيَ المَرَّةُ الأُولى الَّتي أَضْطَرُّ فيها لِلسَّفَرِ في الصَّحْراءِ . وَالحَمْدُ للهِ أَنَّكُمْ عَثَرْتُمْ عَلَيَّ في الوَقْتِ المُناسِبِ ، قَبْلَ أَنْ أَموتَ مِنَ العَطَشِ وَالحُمّى .»

رَبَّتَ شَيْخُ القافِلَةِ عَلى كَتِفِ كَرِيمِ الدِّينِ ، وَقالَ لَهُ : « لَقَدْ كانَ بِجِوارِكَ مَخْزَنٌ لِلْماءِ العَذْبِ ، كُنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْهَلَ مِنْهُ ما تَشاءُ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَنْتَبِهْ إِلَيْهِ ، وَكِدْتَ تَموتُ عَطَشاً بِسَبَبِ قِلَّةِ

خِبْرَتِكَ بِالصَّحْراءِ .»

دَهِشَ كَرِيمُ الدّينِ ، وَقالَ : « كَيْفَ ذَلِكَ ؟ لَمْ يَكُنْ بِجِوارِ أَشْجارِ الصَّبّارِ أيُّ مَصْدَرٍ لِلْماءِ ؛ فَقَدْ فَتَّشْتُ المَكانَ جَيِّداً قَبْلَ أَنْ أَفْقِدَ وَعْيِي .»

أَجابَهُ الشَّيْخُ مُبْتَسِماً : « إنَّ أَشْجارَ الصَّبّارِ ذاتَها هِيَ أَفْضَلُ مَصْدَرٍ لِلْماءِ ؛ فَهِيَ تَمْتَصُّهُ مِنَ التُّرْبَةِ أَوْ عِنْدَ سُقوطِ الأَمْطارِ ، وَتَخْتَزِنُهُ داخِلَ سيقانِها طَويلاً ؛ لِتَسْتَهْلِكَهُ عَلى مَهْلٍ في الأَيّامِ القاحِلَةِ . وَإِذا ما اقْتَطَعْتَ أَحَدَ جُذورِ الصَّبّارِ وَأَغْصانِها ، وَاعْتَصَرْتَهُ بِفَمِكَ ، نِلْتَ ماءً عَذْباً .»

لَمْ يَجِدْ كَرِيمُ الدّينِ ما يَرُدُّ بِهِ عَلى حَديثِ الشَّيْخِ ، وَعَضَّ شَفَتَيْهِ نَدَماً عَلى تَسَرُّعِهِ بِالسَّفَرِ دونَ دِرايَةٍ بِأَحْوالِ الصَّحْراءِ وَطَبيعَتِها. وَنامَ أَصْحابُ القافِلَةِ في المَكانِ الظَّليلِ حَتّى غُروبِ الشَّمْسِ ، فَشارَكَهُمْ كَرِيمُ الدّينِ نَوْمَهُمْ ، وَاسْتَيْقَظَ نَشيطاً عَلى صَوْتِ شَيْخِ القافِلَةِ وَهُوَ يَدْعو الجَميعَ لِلرَّحيلِ .

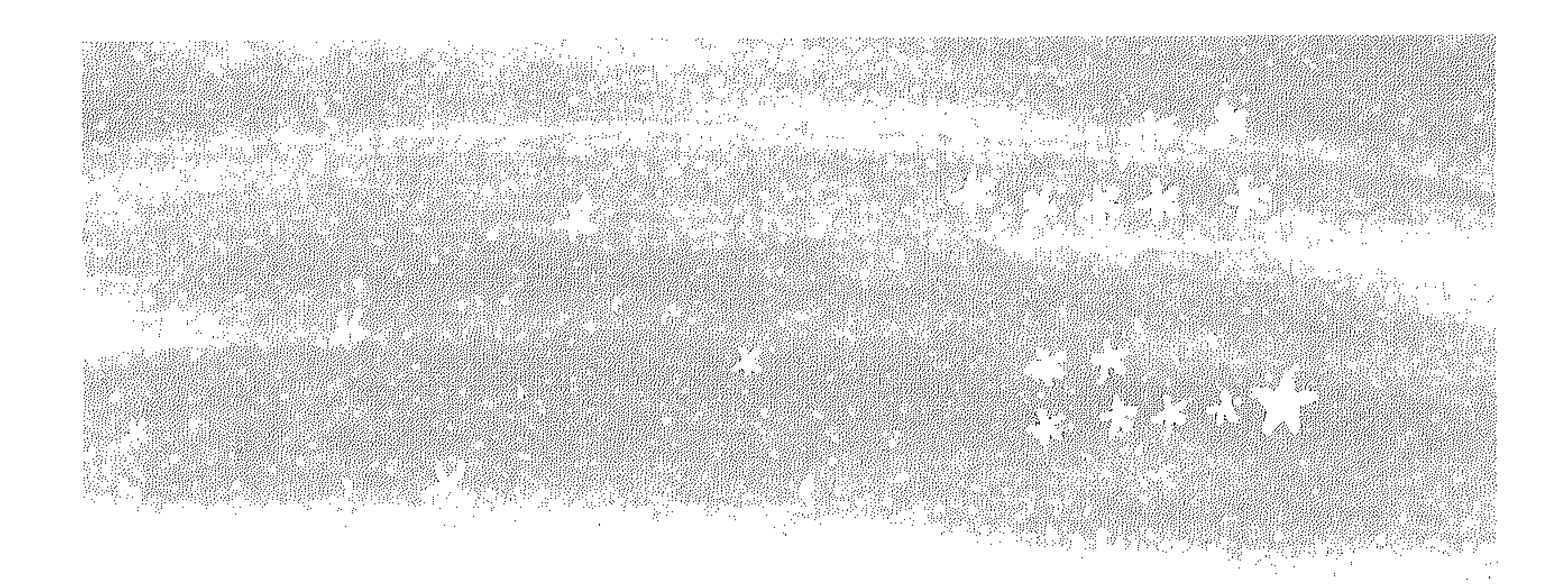
كانَ المَساءُ قَدْ حَلَّ ، وَغَشِيَ الصَّحراءَ ظَلامٌ دامِسٌ إلّا مِنْ نُجومِ السَّماءِ ، الَّتي بَدَتْ كَمَصابيحَ مُتَوَهِّجَةٍ وَسْطَ العَتَمَةِ ، وَقَدْ سادَ جَوٌّ لَطيفٌ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَتْ حَرارَةُ الشَّمْسِ . وَتَأَمَّلَ شَيْخُ القافِلَةِ

السَّماءَ وَنُجومَها ، ثُمَّ أشارَ إلى إحْدى الجِهاتِ الأرْبَعِ قائِلاً : « هَذا هُوَ الشَّمالُ ، وَسَنَسيرُ في هَذا الاتِّجاهِ ، فَنَصِلُ إلى غايَتِنا بَعْدَ ثَلاثَةِ أيّامٍ بِإذْنِ اللهِ . »

أدْرَكَ كَريمُ الدّينِ أنَّ الشَّيْخَ قَدْ حَدَّدَ اتِّجاهَهُ بِواسِطَةِ نُجومِ السَّماءِ ، وَهَمَسَ لِنَفْسِهِ : « هَذا هُوَ ما كانَ عَلَيَّ تَعَلُّمُهُ قَبْلَ أنْ أبادِرَ بِالسَّفَرِ ، فَقَدْ كِدْتُ أدْفَعُ حَياتي ثَمَناً لِجَهْلي . »

وَاقْتَرَبَ مِنْ شَيْخِ القافِلَةِ خَجِلاً وَقالَ : « هَلْ يُمْكِنُكَ أنْ تُعَلِّمَني كَيْفَ دَلَّتْكَ النُّجومُ عَلى هَذا الاتِّجاهِ ؟ »

إبْتَسَمَ الشَّيْخُ ابْتِسامَةً أضاءَتْ وَجْهَهُ ، وَقالَ : « إنَّ المُسافِرَ عَبْرَ الصَّحْراءِ عَلَيْهِ أنْ يَكونَ عَلى مَعْرِفَةٍ بِعِلْمِ الفَلَكِ ، وَمُطَّلِعاً عَلى أماكِنِ النُّجومِ وَاتِّجاهاتِها ، وَهُوَ يَسْتَطيعُ رُؤْيَتَها وَتَحديدَ أماكِنِها حَتّى في أشَدِّ اللَّيالي حُلْكَةً . إنَّ نُجومَ السَّماءِ تَنْقَسِمُ إلى عِدَّةِ مَجْموعاتٍ ، وَكُلُّ مَجْموعَةٍ مِنْها تُشيرُ لاتِّجاهٍ مُعَيَّنٍ . وَهِيَ تَظْهَرُ واضِحَةً جَلِيَّةً ، خاصَّةً في اللَّيالي الصّافِيَةِ الَّتي لا تَجْتاحُ فيها الصَّحْراءَ العَواصِفُ أوِ الأتْرِبَةُ ، فَتَبْدو السَّماءُ مِثْلَ كِتابٍ مَفْتوحٍ ، تَسْهُلُ قِراءَتُهُ لِمَنْ يُجيدُ مَعْرِفَةَ لُغَةِ هَذِهِ النُّجومِ وَمَجْموعاتِها . أمّا في النَّهارِ فَإنَّ حَرَكَةَ الشَّمْسِ تُحَدِّدُ الاتِّجاهاتِ ، فَهِيَ تُشْرِقُ في



جِهَةِ الشَّرْقِ وَتَغْرُبُ في الغَرْبِ . وَعَلى هَذا الأساسِ يُمْكِنُ تَحْديدُ جِهَةِ الشَّمالِ وَالجَنوبِ بِسُهولَةٍ .»

وَأشارَ الشَّيْخُ إلى مَجْموعاتٍ مِنَ النُّجومِ ، وَأخَذَ يَشْرَحُ لِكَريمِ الدّينِ طَبيعَةَ كُلٍّ مِنْها ، وَالاتِّجاهَ الَّذي تَتَواجَدُ فيهِ دائِماً ؛ فَهَزَّ كَريمُ الدّينِ رَأسَهُ ، وَأحَسَّ بِالارْتِياحِ لِما عَلَّمَهُ لَهُ شَيْخُ القافِلَةِ مِنْ مَبادِئِ عِلْمِ الفَلَكِ .

وَفي مُنْتَصَفِ اليَوْمِ الثّالِثِ ، لاحَتْ أخيراً بُيوتُ مَدينَةٍ عَظيمَةٍ وَقُصورُها ، يَمْتَدُّ خَلْفَها شاطِئُ بَحْرٍ عَظيمٍ ، بَدَّدَتْ نَسَماتُهُ حَرَّ الصَّحْراءِ ، فَقالَ شَيْخُ القافِلَةِ مُتَهَلِّلاً : « لَقَدْ وَصَلْنا إلى غايَتِنا ، وَسَنَصِلُ خِلالَ ساعَةٍ عَلى الأكْثَرِ إلى الميناءِ .»

عانَقَ كَريمُ الدّينِ الشَّيْخَ الطَّيِّبَ ، وَقَبَّلَهُ عَلى جَبينِهِ ، وَقالَ لَهُ: « شُكْراً لَكَ أيُّها الشَّيْخُ الجَليلُ ؛ فَقَدْ أنْقَذْتَ حَياتي وَعَلَّمْتَني أشْياءَ مُهِمَّةً ، كَثيراً ما حاوَلَ والِدي - رَحِمَهُ اللهُ - تَعْليمَها لي ، وَلَكِنّي أعْرَضْتُ عَنْها ، دونَ أنْ أُدْرِكَ أهَمِّيَّتَها ، وَرَفَضْتُ مُشارَكَةَ والِدي رِحْلاتِهِ وَأعْمالَهُ ، دونَ أنْ أدْرِيَ أنَّ قِلَّةَ خِبْرَتي قَدْ يَكونُ فيها هَلاكي يَوْماً ما .»

سَألَهُ شَيْخُ القافِلَةِ : « وَلَكِنَّكَ لَمْ تُخْبِرْني ، يا وَلَدي ، مَنْ تَكونُ؛

فَإِنَّني أَشْعُرُ كَأَنّي أعرِفُكَ .»

فَأَخْبَرَهُ كَريمُ الدّينِ بِاسْمِهِ وَاسْمِ والِدِهِ ، فَهَتَفَ شَيْخُ القافِلَةِ بِدَهْشَةٍ وَعَدَمِ تَصْديقٍ : « أَ تَقولُ إِنَّكَ ابْنُ حَكيمِ الدّينِ رَئيسِ التُّجّارِ؟ إنَّ هَذا يُفَسِّرُ إِحْساسي بِمَعْرِفَتِكَ .»

قالَ كَريمُ الدّينِ دَهِشاً بِدَوْرِهِ : « وَهَلْ كُنْتَ تَعْرِفُ والِدي – رَحِمَهُ اللهُ ؟»

تَأَلَّقَتْ عَيْنا شَيْخِ القافِلَةِ وَقَدْ عاوَدَتْهُما ذِكْرى عَزيزَةٌ غالِيَـةٌ ، وَقالَ : « كَيْفَ لا أَعْرِفُ رَئيسَ التُّجّارِ حَكيمَ الدّينِ ؛ وَقَدْ رافَقْتُهُ في رِحْلاتٍ عَديدَةٍ إلى بِلادِ الشّامِ وَالحِجازِ وَالمَغْرِبِ ، وَقَطَعْنا الفَيافِيَ مَعاً ، وَعَبَرْنا البِحارَ وَتَسَلَّقْنا الجِبالَ ؟ لَقَدْ كانَ والِدُكَ مِنْ أَعَزِّ أَصْدِقائي ، وَأَمْهَرَ مَنْ قابَلْتُهُمْ في حَياتي . وَكانَ ذَكِيًّا أَريباً عالِماً بِأَشْياءَ كَثيرَةٍ ، وَمَرْجِعاً لَنا إذا ما اخْتَلَفَتِ الآراءُ ، وَعَلى يَدَيْهِ تَعَلَّمْتُ أَشْياءَ كَثيرَةً . وَأَنا مَدينٌ لَهُ بِحَياتي ؛ فَقَدْ هاجَمَني ذِئْبٌ كاسِرٌ في الصَّحْراءِ ذاتَ يَوْمٍ ، وَأَثْخَنَني بِالجِراحِ بَعْدَ أَنْ شَتَّتَ شَمْلَ القافِلَةِ ، فَعَثَرَ عَلَيَّ والِدُكَ وَأَنا مُصابٌ موشِكٌ عَلى المَوْتِ ، فَداواني بِأَعْشابٍ الْتَقَطَها مِنْ حَوْلِهِ ، وَكانَتْ لَهُ دِرايَةٌ واسِعَةٌ بِفَوائِدِها الطِّبِّيَّةِ ، فَأَنْقَذَني مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ .»

وَتَأَمَّلَ الشَّيْخُ كَرِيمَ الدِّينِ في دَهْشَةٍ لا تَخْفى ، وَقالَ لَهُ: «وَلكِنْ كَيْفَ تَقولُ إِنَّكَ ابْنُ رَئيسِ التُّجّارِ حَكيمِ الدِّينِ - رَحِمَهُ اللهُ - وَأَنْتَ تَجْهَلُ أَبْسَطَ الأَشْياءِ وَالمَعارِفِ وَالعُلومِ ؟»

نَكَّسَ كَريمُ الدِّينِ رَأْسَهُ في خَجَلٍ ، وَلَمْ يَدْرِ بِماذا يُجيبُ .

وَحاوَلَ كَريمُ الدِّينِ أَنْ يَنْقُدَ شَيْخَ القافِلَةِ أُجْرَةَ سَفَرِهِ ، وَلَكِنَّ الشَّيْخَ قالَ لَهُ : « وَفِّرْ نُقودَكَ ، يا وَلَدي ؛ فَقَدْ تَحْتاجُ إِلَيْها في رِحْلَتِكَ ، وَيَكْفي أَنَّكَ ابْنُ صَديقي رَئيسِ التُّجّارِ - رَحِمَهُ اللهُ . فَما قَدَّمْتُهُ لَكَ مِنْ مَعْروفٍ لا يُساوي شَيْئًا مِمّا قَدَّمَهُ لي والِدُكَ مِنْ خَيْرٍ وَمُساعَدَةٍ .»

شَكَرَهُ كَريمُ الدِّينِ وَاتَّجَهَ إِلى الميناءِ . وَشاهَدَ سَفينَةً توشِكُ عَلى الإِقْلاعِ وَعُبورِ بَحْرِ العَواصِفِ ، فَاقْتَرَبَ مِنْ رُبّانِها وَقالَ لَهُ : « هَلْ تَسْمَحُ لي بِعُبورِ البَحْرِ فَوْقَ سَفينَتِكَ ، يا سَيِّدي ، وَسَأَنْقُدُكَ مِنَ المالِ ما تَشاءُ ؟»

وافَقَ الرُّبّانُ بَعْدَ أَنِ اتَّفَقا عَلى أَنْ يَدْفَعَ كَريمُ الدِّينِ مِئَةَ دينارٍ ذَهَبًا .

وَصَعِدَ كَريمُ الدِّينِ إِلى السَّفينَةِ الَّتي أَرْسَلَتْ أَشْرِعَتَها ، وَأَبْحَرَتْ تَدْفَعُها الرِّياحُ القَوِيَّةُ .

وَاسْتَمَرَّتِ السَّفينَةُ في إِبْحارِها أَيّاماً طَويلَةً ، وَكَريمُ الدّين يَشْعُرُ بِغَثَيانٍ شَديدٍ بِسَبَبِ عَدَمِ اعْتِيادِهِ رُكوبَ البَحْرِ ، فَلَزِمَ قَمْرَتَهُ نائِماً طَوالَ النَّهارِ وَاللَّيْلِ ، حَتّى صارَ مَوْضِعاً لِسُخْرِيَةِ البَحّارَةِ وَالرُّكّابِ ، وَمادَّةً لِتَنَدُّرِهِمْ . وَلكِنَّهُ لَمْ يَهْتَمَّ ؛ فَقَدْ كانَ كُلُّ ما يَشْغَلُهُ هُوَ الوُصولَ إِلى الشّاطِئِ في أَسْرَعِ وَقْتٍ .

الفصل الثالث

العاصِفَةُ الرَّهيبَةُ

اِسْتَيْقَظَ كَريمُ الدّينِ ذاتَ مَساءٍ عَلى أصْواتِ ارْتطامٍ عَنيفٍ ، فَأَلْقى نَظْرَةً مَذْعورَةً مِنْ نافِذَةِ قَمْرَتِهِ إلى الخارِجِ ؛ فَشاهَدَ أمْواجاً هائِلَةً عالِيَةً وَهِيَ تَضْرِبُ جَوانِبَ السَّفينَةِ في عُنْفٍ بالِغٍ ، وَتوشِكُ عَلى تَحْطيمِها ، وَالسَّماءَ قَدْ كَسَتْها سُحُبٌ سَوْداءُ قاتِمَةٌ ، تُلْقي بِمَطَرٍ كَالسَّيْلِ ، وَتَتَفَجَّرُ في وَسَطِها عَواصِفُ البَرْقِ .

اِرْتَعَبَ كَريمُ الدّينِ وَانْكَمَشَ مَكانَهُ ، وَأَحَسَّ بِالسَّفينَةِ تَميلُ بِشِدَّةٍ جِهَةَ اليَمينِ ، حَتّى أوْشَكَ أنْ يَسْقُطَ مِنْ فَوْقِ فِراشِهِ ؛ فَتَشَبَّثَ بِهِ ، وَلَكِنَّ السَّفينَةَ مالَتْ لِلنّاحِيَةِ الأُخْرى بَغْتَةً ، فَسَقَطَ كَريمُ الدّينِ مِنْ فِراشِهِ ، ثُمَّ مالَتْ جِهَةَ اليَسارِ ، فَتَدَحْرَجَ نَحْوَ بابِ القَمْرَةِ .

وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ دَقَّ البابُ بِعُنْفٍ شَديدٍ ، فَتَحامَلَ كَريمُ الدّينِ

عَلى نَفْسِهِ وَحاوَلَ استِعادَةَ تَوازُنِهِ وَفَتْحَ البابِ ، فَتَمَكَّنَ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ مَشَقَّةٍ ، وَانْدَفَعَ الرُّبّانُ إلى الدّاخِلِ في غَضَبٍ شَديدٍ ، وَصاحَ في كَريمِ الدّينِ :

« ماذا تَفْعَلُ هُنا أَيُّها الأَحْمَقُ الجَبانُ ؟ هَلْ تَخْتَبِئُ داخِلَ قَمْرَتِكَ وَنَحْنُ جَميعاً نُصارِعُ العاصِفَةَ ؟ »

أَجابَهُ كَريمُ الدّينِ : « ماذا بِاسْتِطاعَتي أَنْ أَفْعَلَهُ ؟ فَأَنا أَجْهَلُ كُلَّ ما يَتَعَلَّقُ بِالبَحْرِ ، وَيُمْكِنُني بَدَلاً مِنْ مُشارَكَتِكُمْ إِنْقاذَ السَّفينَةِ وَمُصارَعَةَ العاصِفَةِ ، أَنْ أَدْفَعَ مِئَةَ دينارٍ ذَهَباً ، لِمَنْ يَقومُ بِهَذا العَمَلِ بَدَلاً مِنّي . »

صَرَخَ فيه الرُّبّانُ : « هَلْ أَنْتَ مَعْتوهٌ أَيُّها الشّابُّ ؟ وَبِماذا سَيُفيدُ ذَهَبُكَ إذا غَرِقَتِ السَّفينَةُ بِمَنْ فيها ؟ هَيّا أَيُّها الجَبانُ اصْعَدْ إلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، وَشارِكْ بَحّارَتَها وَرُكّابَها في إِنْقاذِها ، وَإِلا أَلْقَيْتُ بِكَ في قَلْبِ البَحْرِ الهائِجِ ، فَتَكونَ أَوَّلَ الضَّحايا ! »

خافَ كَريمُ الدّينِ ، وَاتَّجَهَ إلى سَطْحِ السَّفينَةِ . وَما إِنْ بَرَزَ رَأْسُهُ لأَعْلى ، حَتّى لَطَمَتْهُ مَوْجَةٌ عاتِيَةٌ مِنَ المِياهِ أَلْقَتْهُ لأَسْفَلَ مَرَّةً أُخْرى ، فَشُجَّ رَأْسُهُ ، وَسالَتْ دِماؤُهُ ، وَلَكِنَّهُ تَحامَلَ عَلى نَفْسِهِ وَتَشَبَّثَ بِدَرابَزينِ السُّلَّمِ جَيِّداً ، وَصَعِدَ إلى سَطْحِ السَّفينَةِ مُتَأَلِّماً ، يُعاني مِنَ

الدُّوارِ وَآلام رَأسِهِ الجَرِيح . وَ وَقفَ مَكانَهُ في ذُهولٍ مِنْ عُنْفِ العاصِفَةِ الَّتي لَمْ يُشاهِدْ مِثْلَها في حَياتِهِ .

كانَتِ العاصِفَةُ عَلى أشُدّها ، كَأنَّما انْفَتَحَتْ أبْوابُ الجَحيمِ ، فَالمَوْجُ قَدْ زادَ ارْتِفاعُهُ عَلى عَشَرَةِ أمْتارٍ ، وَصارَ يَلْطِمُ سَطْحَ السَّفينَةِ وَجَوانِبَها كَأنَّهُ شَيْطانٌ مَجْنونٌ .

وراحَتِ الرِّياحُ تَدْفَعُ بِصَوارِي السَّفينَةِ وَتَلْهو بِها كَأنَّها عيدانُ كِبْريتٍ ، وَقَدْ مَزَّقَتْ بَعْضَ أشْرِعَتِها وَأطاحَتْ بِجُزْءٍ مِنْ إفْريزِ مُقَدَّمَةِ السَّفينَةِ ، فَانْدَفَعَتِ المِياهُ خِلالَ الجُزْءِ المُحَطَّمِ إلى قَلْبِ السَّفينَةِ لِتُغْرِقَ مَنْ فيها .

وَحاوَلَ البَحّارَةُ وَرُكّابُ السَّفينَةِ نَزْحَ المِياهِ مِنَ السَّطْحِ بِدِلائِهِمْ ، وَإلقاءَها إلى اليَمِّ الثّائِرِ ثانِيَةً ، وَلَكِنَّ مُحاوَلاتِهِمْ كانَتْ تَبْدو مَحْكوماً عَلَيْها بِالفَشَلِ ؛ لِشِدَّةِ انْدِفاعِ المِياهِ إلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، وَهِيَ تَجْرُفُ كُلَّ شَيْءٍ في طَريقِها.

وَتَسَلَّقَ أحَدُ البَحّارَةِ الشِّراعَ الكَبيرَ لِيُلَمْلِمَهُ وَيَلُفَّ الحِبالَ حَوْلَهُ ، حَتّى لا تُمَزِّقَهُ الرِّياحُ أوْ يَتَسَبَّبَ في غَرَقِ السَّفينَةِ . وَانْدَفَعَ كَريمُ الدّينِ إلى سَطْحِ السَّفينَةِ وَقَدْ تَضاعَفَ إحْساسُهُ بِالغَثَيانِ ، وَلَكِنَّهُ تَغَلَّبَ عَلَيْهِ ، وَالْتَقَطَ دَلْواً راحَ يَنْزَحُ بِهِ الماءَ مِنَ السَّطْحِ إلى قَلْبِ الماءِ .



وَقاوَمَ لَطْمَ الرِّياحِ وَعُنْفَ الأمْواجِ وَهُوَ يُواصِلُ عَمَلَهُ . وَشاهَدَ دَفَّةَ السَّفينَةِ وَالأمْواجُ تَكادُ تُهَشِّمُها وتَنْزِعُها مِنْ مَكانِها ، فَانْدَفَعَ إلَيْها وَتَشَبَّثَ بِها مُحاوِلاً حِمايَتَها بِجَسَدِهِ ، مُتَحَمِّلاً لَطْمَ الأمْواجِ لَهُ ، وَعُنْفَ الرِّياحِ الَّتي أوْشَكَتْ أنْ تُلْقِيَ بِهِ مِنْ مَكانِهِ ، وَتُطَوِّحَهُ في وَ كَأنَّهُ رِيشَةٌ .

واشْتَدَّتِ الرِّياحُ فَانْقَطَعَتْ حِبالُ الشِّراعِ الكَبيرِ ، وانْبَسَطَ في حَرَكَةٍ مُفاجِئَةٍ ، فَمالَتِ السَّفينَةُ عَلى جانِبِها ، وَأوْشَكَتْ عَلى الغَرَقِ بِسَبَبِ شِراعِها المُنْبَسِطِ .

وَصَرَخَ الرُّبّانُ في البَحّارَةِ : « لِيُحاوِلْ أحَدُكُمْ تَسَلُّقَ الصّاري وَتَمْزيقَ الأشْرِعَةِ ، وَإلّا أغْرَقَتِ الرِّياحُ السَّفينَةَ . »

انْدَفَعَ عَدَدٌ مِنَ البَحّارَةِ إلى الصّاري ، وَلَكِنَّ الرِّياحَ الشَّديدَةَ لَمْ تُمَكِّنْهُمْ مِنْ بُلوغِهِ ، وَدَفَعَتْهُمْ في عُنْفٍ ، فَألْقَتْ بَعْضَهُمْ إلى حاجِزِ السَّفينَةِ فَاصْطَدَموا بِهِ ، أمّا البَعْضُ الآخَرُ فَكانَ أسْوَأ حَظّاً ؛ إذْ قَذَفَتْ بِهِمُ الرِّياحُ إلى قَلْبِ المَوْجِ الثّائِرِ، فَابْتَلَعَهُمْ في جَوْفِهِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أحَدٌ إنْقاذَهُمْ .

وَمالَتِ السَّفينَةُ بِشِدَّةٍ ناحِيَةَ الجِهَةِ اليُمْنى ، وَأوْشَكَتْ عَلى الغَرَقِ . وَباءَتْ كُلُّ جُهودِ بَقِيَّةِ البَحّارَةِ لِلْوُصولِ إلى مَكانِ الشِّراعِ بِالفَشَلِ ؛ فَصَرَخَ الرُّبّانُ كَالمَجْنونِ : « سَوْفَ نَغْرَقُ ! لَمْ تَعُدْ ثَمَّةَ وَسيلَةٌ لِلنَّجاةِ ! »

وَدَقَّ قَلْبُ كَريمِ الدّينِ بِعُنْفٍ شَديدٍ . كانَ مَكانُهُ أمامَ الدَّفَّةِ قَريباً مِنْ صاري الشِّراعِ الكَبيرِ ، وَكانَ مِنَ اليَسيرِ عَلَيْهِ بُلوغُهُ دونَ الآخَرينَ ، وَلَكِنَّهُ تَرَدَّدَ في المُخاطَرَةِ ، وَصَرَخَ الرُّبّانُ في كَريمِ الدّينِ: « أنْتَ أيُّها الشّابُّ ، إنَّ حَياتَنا وَحَياتَكَ مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَأسْرِعْ بِتَسَلُّقِ الصّاري وَتَمْزيقِ حِبالِ الشِّراعِ لِفَصْلِهِ عَنِ الصّاري ، قَبْلَ أنْ يَفوتَ الأوانُ .»

لَمْ يَكُنْ لِكَريمِ الدّينِ خِبْرَةٌ في تَسَلُّقِ الصَّواري ، وَلَكِنَّهُ حَزَمَ أمْرَهُ وَاسْتَجْمَعَ شَجاعَتَهُ وَحاوَلَ الوُصولَ إلى الصّاري ، وَلَكِنَّ الرِّياحَ ألْقَتْ بِهِ بِعُنْفٍ لِلْخَلْفِ . وَكَرَّرَ المُحاوَلَةَ وَتَشَبَّثَ بِالصّاري في اللَّحْظَةِ الأخيرَةِ ، وَالرِّياحُ تَكادُ تُطيحُ بِهِ في الهَواءِ كَذَرَّةِ غُبارٍ لا وَزْنَ لَها ، وَلَكِنَّهُ تَشَبَّثَ بِالصّاري أكْثَرَ ، وَراحَ يَتَسَلَّقُهُ في بُطْءٍ ، وَقَدْ أغْمَضَ عَيْنَيْهِ ؛ حَتّى لا تُرْهِبَهُ العاصِفَةُ العاتِيَةُ ، وَالأمْواجُ المُتَلاطِمَةُ الَّتي أغْرَقَتْهُ . وَتَعَلَّقَتْ بِهِ أبْصارُ البَحّارَةِ وَالرُّكّابِ وَهُوَ يَتَسَلَّقُ الصّارِيَ بِبُطْءٍ ؛ فَقَدْ كانَ أمَلَهُمُ الأخيرَ في الحَياةِ .

وَتَسَلَّخَتْ يَدا وَقَدَما كَريمِ الدّينِ ، وَأوْشَكَ أنْ يَهْوِيَ مِنْ مَكانِهِ مِراراً، وَلَكِنَّهُ واصَلَ التَّسَلُّقَ حَتّى بَلَغَ أخيراً مَوْضِعَ الحِبالِ الَّتي تُثَبِّتُ الشِّراعَ إلى الصّاري ، وَاكْتَشَفَ أنَّهُ لا يَحْمِلُ أيَّ سِلاحٍ يُمَزِّقُ بِهِ الحِبالَ ؛ فَأخَذَ يَقْطَعُها بِيَدَيْهِ وَأسْنانِهِ وَبِكُلِّ ما تَبَقّى لَهُ مِنْ قُوَّةٍ .

وَتَنَبَّهَ الرُّبّانُ لِما يَحْدُثُ فَصاحَ في كَريمِ الدّينِ : « ها هِيَ ذي

سِكِّيني أَيُّها الشّابُّ الشُّجاعُ .»

وَطَوَّحَ بِسِكِّينِهِ الكَبيرَةِ فَطارَتْ في الهَواءِ ، ثُمَّ انْغَرَزَتْ في الصّاري ، بَيْنَ أصابعِ كَريمِ الدّينِ المُتَشَبِّثَةِ بِهِ .

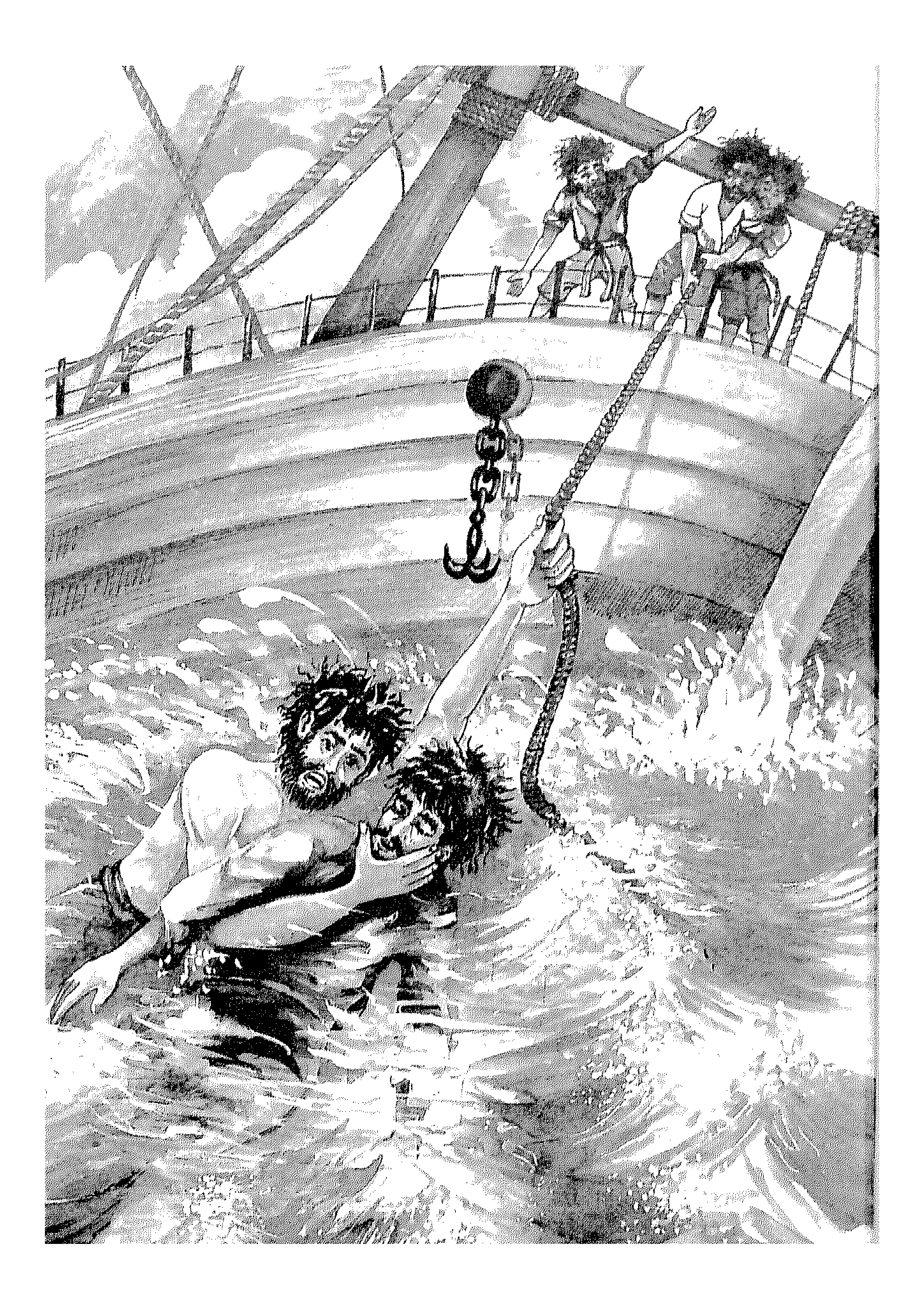
جَذَبَ كَريمُ الدّينِ السِّكّينَ وَهَوى بِها فَوْقَ الحِبالِ السَّميكَةِ ، وَفي اللَّحْظَةِ التّالِيَةِ تَمَزَّقَتِ الحِبالُ وَانْزاحَتْ عَنْ مَوْضِعِها ، وَلَمْ يَعُدْ هُناكَ ما يُثَبِّتُ الشِّراعَ بِالصّاري ، فَدَفَعَتْهُ الرّيحُ بَعيداً . وَفي الحالِ اعْتَدَلَتِ السَّفينَةُ بِحَرَكَةٍ عَنيفَةٍ ، فَاخْتَلَّ تَوازُنُ كَريمِ الدّينِ ، وَهَوى لأَسْفَلَ في قَلْبِ الأَمْواجِ المُتَلاطِمَةِ .

اِرْتَطَمَ كَريمُ الدّينِ بِالمِياهِ في عُنْفٍ ، فَصَرَخَ بِأَعْلى صَوْتِهِ : « إِنَّني لا أَعْرِفُ السِّباحَةَ ! سَوْفَ أَغْرَقُ ! لِيُنْقِذْني أَحَدُكُمْ .»

هَتَفَ الرُّبّانُ : « هَذا الشّابُّ الشُّجاعُ يَجِبُ أَلا يَموتَ .»

وَرَمى بِنَفْسِهِ في قَلْبِ المِياهِ مُخاطِراً ، وَانْدَفَعَ سابِحاً بِكُلِّ قُوَّتِهِ، وَانْدَفَعَتْ مَوْجَةٌ هائِلَةٌ ابْتَلَعَتْ كَريمَ الدّينِ في جَوْفِها ، فَغاصَ الرُّبّانُ داخِلَها ، وَلَمَحَ كَريمَ الدّينِ فاقِداً وَعْيَهُ ، وَقَدْ أَوْشَكَتْ دُوّامَةٌ عَلى اخْتِطافِهِ في قَلْبِها ، فَسَبَحَ إِلَيْهِ بِقُوَّةٍ ، وَأَمْسَكَ بِهِ في اللَّحْظَةِ الأَخيرَةِ، وَرَفَعَهُ عالِياً فَوْقَ سَطْحِ الماءِ .

وَأَلْقى البَحّارَةُ بِحَبْلٍ مِنْ فَوْقِ السَّفينَةِ إِلى الرُّبّانِ ؛ فَتَشَبَّثَ بِهِ وَهُوَ يَجْذِبُ كَريمَ الدّينِ مَعَهُ ، ثُمَّ حَمَلَهُ فَوْقَ كَتِفِهِ ، وَأَخَذَ يَصْعَدُ بِالحَبْلِ إِلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، فَبَلَغَهُ بَعْدَ مَشَقَّةٍ . وَأَخَذَ يُفْرِغُ الماءَ



الّذي شَرِبَهُ كَرِيمُ الدّين ، بِالضَّغْطِ عَلى بَطْنِهِ ، فَتَمَكَّنَ مِنْ إنْقاذِهِ.

وَهَدَأَتِ العاصِفَةُ بَعْدَ قَليلٍ وَصَفا الجَوُّ ، فَحَمَلَ البَحّارَةُ كَريمَ الدّين إلى حُجْرَتِهِ ، ثُمَّ انْشَغَلوا بِإصْلاحِ ما تَلِفَ في السَّفينَةِ .

وَأَفاقَ كَرِيمُ الدّين في المَساءِ ، فَوَجَدَ نَفْسَهُ مُمَدَّداً في قَمْرَتِهِ . وَتَذَكَّرَ ما جَرى ، وَسُقوطَهُ في قَلْبِ اليَمِّ مِنْ فَوْقِ صاري السَّفينَةِ ، فَتَساءَلَ بِدَهْشَةٍ كَيْفَ تَمَكَّنَ مِنَ النَّجاةِ في مِثْلِ تِلْكَ الظُّروفِ ؟ وَكَيْفَ ظَلَّتِ السَّفينَةُ طافِيَةً فَوْقَ الماءِ وَلَمْ تَغْرَقْ ، بِالرَّغْمِ مِنَ العاصِفَةِ العاتِيَةِ ؟

وَدَقَّ البابُ بَعْدَ قَليلٍ وَدَخَلَ الرُّبّانُ ، وَقالَ مُتَهَلِّلاً لِكَريمِ الدّين : « حَمْداً للهِ عَلى أَنَّكَ اسْتَعَدْتَ وَعْيَكَ ؛ فَقَدْ خَشيتُ أَنْ يَكونَ الماءُ الّذي ابْتَلَعْتَهُ في البَحْرِ قَدْ سَبَّبَ لَكَ ضَرَراً لا تُفيقُ مِنْهُ أَبَداً .»

سَأَلَهُ كَريمُ الدّينِ دَهِشاً : « مَنِ الّذي أَنْقَذَني مِنَ الغَرَقِ في مِثْلِ هَذا الطَّقْسِ العاصِفِ ؟»

أَجابَهُ الرُّبّانُ : « أَنا أَنْقَذْتُكَ ، وَلَكِنَّني أَتَعَجَّبُ كَيْفَ يَجْهَلُ شابٌّ مِثْلُكَ السِّباحَةَ ، وَهِيَ مِنَ المَهاراتِ الّتي يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّمَها كُلُّ إنْسانٍ ، خاصَّةً مَنْ تَضْطَرُّهُ الظُّروفُ لِعُبورِ البِحارِ ؟»

نَكَّسَ كَريمُ الدّينِ رَأسَهُ خَجَلاً وَقالَ : « إنَّ الظُّروفَ لَمْ تَضْطَرَّني مِنْ قَبْلُ لِلسَّفَرِ بِالبَحْرِ ، وَلَمْ أهْتَمَّ قَطُّ بِتَعَلُّمِ السِّباحَةِ بِرَغْمِ ما بَذَلَهُ والِدي - رَحِمَهُ اللهُ - في هَذا الشَّأنِ . وَلَكِنَّني أعْرَضْتُ عَنِ التَّعَلُّمِ أوْ مُشارَكَةِ والِدي رِحْلاتِهِ ، وَأنا أظُنُّ أنَّني لَنْ أحْتاجَ إلى هَذِهِ المَعْرِفَةِ أبَداً .»

قالَ الرُّبّانُ باسِماً : « سَوْفَ أعَلِّمُكَ السِّباحَةَ ، فَهَذا هُوَ أقَلُّ ما أقَدِّمُهُ لَكَ ، بَعْدَ أنْ أنْقَذْتَ السَّفينَةَ وَمَنْ فيها بِشَجاعَتِكَ .»

وَفي الصَّباحِ انْتَهى بَحّارَةُ السَّفينَةِ مِنْ تَرْميمِ ما حَلَّ بِها وَإصْلاحِهِ بِقَدْرِ ما يَسْتَطيعونَ ؛ انْتِظاراً لِوُصولِهِمْ إلى الشّاطِئِ . وَعَهِدَ الرُّبّانُ إلى اثْنَيْنِ مِنْ أمْهَرِ البَحّارَةِ ، بِتَعْليمِ كَريمِ الدّينِ السِّباحَةَ أثْناءَ تَوَقُّفِ السَّفينَةِ أمامَ بَعْضِ الجُزُرِ النّائِيَةِ ، الَّتي يَسْكُنُها أقْوامٌ بُدائِيّونَ ، فَكانوا يَحْصُلونَ مِنْها عَلى الطَّعامِ وَالفَواكِهِ وَالخَضْراواتِ وَالماءِ ، مُقابِلَ ما يَمْنَحونَهُ لِسُكّانِ هَذِهِ الجُزُرِ مِنْ أقْمِشَةٍ زاهِيَةٍ ، وَعُقودٍ مِنَ الخَرَزِ المُلَوَّنِ كانَتْ تَبْهَرُ البُدائِيّينَ كَثيراً . وَانْتَهَزَ كَريمُ الدّينِ فُرْصَةَ تَوَقُّفِ السَّفينَةِ بَعْضَ الوَقْتِ عَلى شَواطِئِ هَذِهِ السُّفُنِ ، وَراحَ يَتَعَلَّمُ السِّباحَةَ وَالغَوْصَ ، فَأجادَهُما خِلالَ وَقْتٍ قَصيرٍ بِفَضْلِ مُعَلِّمَيْهِ الماهِرَيْنِ .

سَأَلَ كَرِيمُ الدِّينِ الرُّبَّانَ : « لِماذا سَمَّوْا هَذا البَحْرَ بِبَحْرِ العواصِفِ ؟»

أجابَهُ الرُّبّانُ : « لأنَّ هَذا البَحْرَ بِالذّاتِ يَشْتَهِرُ بِهُبوبِ العَواصِفِ فَوْقَهُ في أَوْقاتٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ العامِ ، وَعَلى كُلِّ بَحّارٍ وَرُبّانٍ أَنْ يَعْرِفَها لِكَيْ يَتَجَنَّبَها ؛ فَهِيَ عَواصِفُ مُدَمِّرَةٌ ، لا تَتْرُكُ شَيْئًا طافِيًا دونَ إِغْراقِهِ . وَمِنْ سَيِّئاتِ هَذا البَحْرِ أَنَّ بَعْضَ العَواصِفِ فيهِ قَدْ تَهُبُّ في غَيْرِ مَواعيدِها ، مِثْلَ العاصِفَةِ الَّتي هَبَّتْ عَلَيْنا بِالأَمْسِ .»

سَأَلَ كَرِيمُ الدِّينِ : « هَلْ تُحَدِّدونَ اتِّجاهَ السَّفينَةِ بِواسِطَةِ النُّجومِ أَيْضًا ؟»

أجابَ الرُّبّانُ : « لَيْسَ دائِمًا ، بِسَبَبِ هُبوبِ الرِّياحِ وَسُقوطِ الأَمْطارِ الَّتي تَمْنَعُ رُؤْيَةَ النُّجومِ ؛ وَلِذَلِكَ نَسْتَخْدِمُ البوصَلَةَ وَالأَسْطُرْلابَ دائِمًا في مَعْرِفَةِ الاتِّجاهِ ؛ فَالبوصَلَةُ تُشيرُ إِلى جِهَةِ الشَّمالِ دائِمًا . وَإِذا ما عَرَفْنا هَذا الاتِّجاهَ بِالذّاتِ أَمْكَنَنا تَحْديدُ بَقِيَّةِ الاتِّجاهاتِ بِسُهولَةٍ .»

وَأَخَذَ الرُّبّانُ يَشْرَحُ لِكَريمِ الدِّينِ أَسْرارَ البَحْرِ وَالعَواصِفِ وَالسُّفُنِ ، وَطَبيعَةَ المَوانِئِ وَالجُزُرِ وَالبِلادِ الَّتي تَمُرُّ بِها السُّفُنُ ،

وَمَواعيدَ هُبوبِ الرِّياحِ وَالأَنْواءِ ، وَكَريمُ الدّينِ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ صامِتاً مُتَيَقِّظاً .

وَأَخيراً لاحَ الشّاطِئُ مِنْ بَعيدٍ ، فَتَهَلَّلَ البَحّارَةُ وَصاحوا فَرِحينَ لِوُصولِهِمْ سالِمينَ . وَفاضَتْ عَيْنا كَريمِ الدّينِ بِالدُّموعِ لِبُلوغِهِ الشّاطِئَ في أَمانٍ ، بَعْدَ أَنْ حَسِبَ أَنَّهُ لَنْ يَطَأَ الأَرْضَ ثانِيَةً . وَتَأَمَّلَهُ الرُّبّانُ قَليلاً ثُمَّ سَأَلَهُ : « إِنَّكَ تُشْبِهُ صَديقاً عَزيزاً كانَ مِنْ أَخْلَصِ مَنْ عَرَفْتُهُمْ في حَياتي ؛ فَأَخْبِرْني مَنْ تَكونُ أَيُّها الشّابُّ ؛ لأَتَحَقَّقَ مِنْ ظُنوني .»

أَجابَهُ كَريمُ الدّينِ : « إِنَّني ابْنُ رَئيسِ التُّجّارِ الرّاحِلِ ، حَكيمِ الدّينِ .»

دَهِشَ الرُّبّانُ وَقالَ : « إِذاً فَقَدْ صَحَّ ظَنّي ؛ فَأَنْتَ ابْنُ صَديقِيَ العَزيزِ حَكيمِ الدّينِ – رَحِمَهُ اللهُ . وَلَكِنَّني أَتَعَجَّبُ ! لَقَدْ كانَ والِدُكَ مَلّاحاً ماهِراً وَرُبّاناً عَظيماً ، لَمْ تَشْهَدِ البِحارُ مَنْ هُوَ في مِثْلِ عِلْمِهِ وَخِبْرَتِهِ بِالبَحْرِ وَالرِّياحِ ، وَطُرُقِ المِلاحَةِ ، وَمَواقِعِ الشَّواطِئِ ، وَمَواعيدِ هُبوبِ العَواصِفِ وَالأَنْواءِ ، وَكانَ غَوّاصاً ماهِراً وَسَبّاحاً عَظيماً . وَكانَتْ بِدايَةُ صَداقَتِنا – ذاتَ يَوْمٍ – عِنْدَما كانَ مُسافِراً فَوْقَ ظَهْرِ سَفينَتي ، وَكانَتْ تُرافِقُني في رِحْلَتي طِفْلَتي الصَّغيرَةُ ،

فَلَمّا هَبَّتِ الأعاصيرُ حَطَّمَتِ السَّفينَةَ وَبَعْثَرَتْها إلى أَلْفِ قِطْعَةٍ ، فَتَعَلَّقَ كُلٌّ مِنّا بِقِطْعَةٍ خَشَبِيَّةٍ . وَلَمَحْتُ ابْنَتي وَهِيَ تُقاوِمُ الغَرَقَ ، وَسَمَكَةَ قِرْشٍ مُخيفَةً تَنْدَفِعُ إِلَيْها ، فَبُهِتُّ مَكاني وَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ الحَرَكَةِ لإِنْقاذِها ، وَلكِنَّ والِدَكَ – رَحِمَهُ اللهُ – انْدَفَعَ سابِحاً إلى سَمَكَةِ القِرْشِ ، وَأَخَذَ يَطْعَنُها بِسِكِّينِهِ حَتّى قَتَلَها ، وَحَمَلَ ابْنَتي فَوْقَ ظَهْرِهِ ، وَسَبَحَ بِها طَوالَ اللَّيْلِ إلى أَنْ وَصَلَ بِها الشّاطِئَ سالِماً .»

وَفاضَتْ عَيْنا الرُّبّانِ بِالدُّموعِ لِلذِّكْرى ، ثُمَّ اسْتَعادَ مَرَحَهُ وَالْتَفَتَ إلى كَريمِ الدّينِ ، مُواصِلاً حَديثَهُ في صَوْتٍ مُؤَثِّرٍ : « لَقَدْ كانَ والِدُكَ بَطَلاً لا يَهابُ شَيْئاً في الأَرْضِ وَالبَحْرِ ، فَكَيْفَ يَكونُ ابْنُهُ الوَحيدُ جاهِلاً عاطِلاً مِنْ كُلِّ عِلْمٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ أَوْ خِبْرَةٍ بِالبَحْرِ ؟»

نَكَّسَ كَريمُ الدّينِ رَأْسَهُ في إِحْساسٍ شَديدٍ بِالخَجَلِ ، وَلَمْ يَرُدَّ. وَعِنْدَما حاوَلَ أَنْ يَنْقُدَ الرُّبّانَ أُجْرَةَ سَفَرِهِ ، رَفَضَ الرُّبّانُ قائِلاً : « يَكْفي أَنَّكَ ابْنُ صَديقِيَ الحَميمِ ، رَحِمَهُ اللهُ ؛ فَكَيْفَ تُريدُني أَنْ أَتَقاضى مِنْكَ أَجْراً أَوْ مالاً ؟»

الفصل الرابع

العِصابَةُ

غادَرَ كَريمُ الدّينِ السَّفينَةَ إلى الشّاطِئ بَعْدَ أنْ وَدَّعَ الرُّبّانَ . وَتَوَقَّفَ مُتَعَجِّبًا وَهُوَ يَتأمَّلُ السّورَ العَظيمَ الهائِلَ ، الّذي يُحيطُ بِالمَدينَةِ إحاطَةَ السِّوارِ بِالمِعْصَمِ ، وَيَمْتَدُّ إلى نِهايَةِ الأُفُقِ . كانَ السّورُ مِنَ الحِجارَةِ الضَّخْمَةِ القاسِيَةِ ، تَتَخَلَّلُهُ فُتْحاتٌ وَأبْراجٌ وَقِلاعٌ ، يَقِفُ عَلى حِراسَتِها بَعْضُ الجُنودِ ، وَتُطِلُّ مِنْها فُوَّهاتُ المَدافِعِ .

وَكانَتْ هُناكَ بَوّابَةٌ ضَخْمَةٌ في قَلْبِ السّورِ ، تُفْضي إلى داخِلِ المَدينَةِ ، فَعَبَرَها كَريمُ الدّينِ ، وَسارَ قَليلاً يَتَجَوَّلُ في أنْحاءِ المَدينَةِ ، ثُمَّ وَقَفَ حائِرًا لا يَدْري في أيِّ اتِّجاهٍ يَسيرُ . وَشاهَدَ رَجُلاً أعْوَرَ يَضَعُ غِمامَةً عَلى إحْدى عَيْنَيْهِ ، وَيَبْدو مُريبًا ، وَلٰكِنَّ كَريمَ الدّينِ لَمْ يَشُكَّ فيهِ ، فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَسَألَهُ : « أخْبِرْني أيُّها السَّيِّدُ ، كَيْفَ أصِلُ إلى جَبَلِ الحِكْمَةِ ، وَأقابِلُ النّاسِكَ المُتَعَبِّدَ المُقيمَ فَوْقَ قِمَّتِهِ ؟»

تَأَمَّلَهُ الأَعْوَرُ مُتَشَكِّكًا ، وَقالَ لَهُ : « وَلَكِنْ لا يَزالُ أمامَكَ مَسافَةٌ بَعيدَةٌ وَسَفَرٌ طَويلٌ ، وَسَتَحْتاجُ إلى مالٍ كَثيرٍ لِمِثْلِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ .»

أجابَهُ كَريمُ الدِّينِ في فَخْرٍ : « إنَّني أمْتَلِكُ مِنَ الذَّهَبِ ما يَفيضُ عَنْ حاجَتي ، فاطْمَئِنَّ مِنْ هَذِهِ النّاحِيَةِ .»

تَهَلَّلَتْ أساريرُ الأعْوَرِ ، وَرَبَّتَ عَلى كَتِفِ كَريمِ الدِّينِ في وُدٍّ مُصْطَنَعٍ قائِلاً : « وَلَكِنَّكَ تَبْدو مُجْهَدًا مُتْعَبًا ، وَفي حاجَةٍ إلى نَوْمٍ وَراحَةٍ قَبْلَ سَفَرِكَ الطَّويلِ ، وَأنا أعْرِفُ خانًا قَريبًا ، يُقَدِّمُ طَعامًا جَيِّدًا وَفِراشًا وَثيرًا ، فَيُمْكِنُكَ أنْ تَرْتاحَ فيهِ .»

وافَقَ كَريمُ الدِّينِ ، وَسارَ مَعَ الرَّجُلِ المُريبِ إلى خانٍ بَعيدٍ يَقَعُ في أطْرافِ المَدينَةِ ، تُعَشِّشُ في أرْكانِهِ البومُ ، وَيُغَلِّفُهُ السُّكونُ وَالصَّمْتُ . وَيَبْدو كَأنَّهُ مَأْوًى لِلُّصوصِ ؛ فَدَهِشَ كَريمُ الدِّينِ ، وَلَكِنَّ الأعْوَرَ دَفَعَهُ إلى الدّاخِلِ في مَكْرٍ قائِلاً :

« لا يَغُرَّنَّكَ مَظْهَرُ الخانِ ؛ فَهُوَ مِنَ الدّاخِلِ مُريحٌ ، وَسَتُعْجِبُكَ الإقامَةُ فيهِ .»

وَكانَ كَريمُ الدِّينِ يَشْعُرُ بِالتَّعَبِ وَالوَهَنِ ؛ فَلَمْ يُجادِلْ صاحِبَهُ ، وَهَمَسَ لِنَفْسِهِ :

« في الغَدِ سَأبْحَثُ عَنْ مَكانٍ آخَرَ لِلإقامَةِ ، أمّا اللَّيْلَةَ فَلا بَأسَ مِنْ قَضائِها بِأيِّ شَكْلٍ مِنَ الأشْكالِ .»



وَاستَقْبَلَهُ صاحِبُ الخانِ ، وكانَ ذا سَحْنَةٍ كَريهَةٍ وَمَلامحَ حادَّةٍ ، وَذِراعٍ مَبْتورَةٍ ، وَقالَ لِكَريمِ الدّينِ : « مَرْحَبًا بِكَ أَيُّها الشّابُّ . إنَّكَ سَوْفَ تَرْتاحُ في هَذا الخانِ .»

تَأمَّلَهُ كَريمُ الدّينِ في صَمْتٍ وَشَكٍّ ، وَلَمْ يَرُدَّ .

وَقادَهُ صاحِبُ الخانِ لأعْلى حُجْرَةٍ ؛ وَكانَتْ تَحْتَوي عَلى فِراشٍ خَشِنٍ ، وَمَقاعِدَ مُحَطَّمَةِ السِّيقانِ ، وَدولابٍ قَديمٍ ، فَقالَ كَريمُ الدّينِ لِنَفْسِهِ في حَنَقٍ : « لَقَدْ خَدَعَني هَذا الأعْوَرُ ، وَقادَني إلى أسْوَإ خانٍ في المَدينَةِ . وَلَكِنْ لا بَأسَ ؛ فَإنَّني أجْهَلُ طُرُقاتِها وَأماكِنَ الإقامَةِ فيها . وَفي الغَدِ سَيَكونُ لي شَأنٌ آخَرُ .»

وَعافَ الطَّعامَ الَّذي أتى بِهِ صاحِبُ الخانِ ؛ فَقَدْ كانَ كَريهَ المَذاقِ ، ذا رائِحَةٍ مُقْبِضَةٍ ، فَهَمَسَ لِنَفْسِهِ : « مِنَ الأفْضَلِ أنْ أنامَ بِدونِ عَشاءٍ .» ثُمَّ رَقَدَ في فِراشِهِ الخَشِنِ بَعْدَ أنْ أغْلَقَ بابَ حُجْرَتِهِ جَيِّدًا ، وَراحَ في نَوْمٍ عَميقٍ .

وَلَكِنَّهُ أفاقَ بَعْدَ وَقْتٍ عَلى حَرَكَةٍ مُريبَةٍ في ظَلامِ الحُجْرَةِ ؛ كانَتْ ثَمَّةَ يَدٌ تَعْبَثُ بِحِزامِهِ الَّذي أخْفى فيهِ ذَهَبَهُ ، وَتُحاوِلُ أنْ تَحُلَّهُ مِنْ وَسَطِهِ ، فَتَنَبَّهَ كَريمُ الدّينِ وَقَفَزَ مِنْ مَكانِهِ ، وَشاهَدَ في الظَّلامِ صاحِبَ الخانِ وَصاحِبَهُ الأعْوَرَ يُحاوِلانِ اسْتِلابَ مالِهِ ، فَصاحَ فيهِما غاضِبًا : « ماذا تَفْعَلانِ أيُّها اللِّصّانِ ؟ أ هَذا خانٌ أمْ وَكْرٌ لِلأوْغادِ ؟»

اِنْقَضَّ عَلَيْهِ صاحِبُ الخانِ وَلَطَمَهُ بِقَبْضَتِهِ صائِحاً : « ما الَّذي أَوْقَظَكَ أَيُّها الأَحْمَقُ وَقَدْ وَضَعْتُ لَكَ مُنَوِّماً في الطَّعامِ ؟ وَلَكِنَّنا سَنَسْتَوْلي عَلى مالِكَ .» وَقَيَّدَهُ الأَعْوَرُ مِنَ الخَلْفِ صائِحاً : « وَإِذا حاوَلْتَ الْمُقاوَمَةَ قَتَلْناكَ دونَ رَحْمَةٍ .»

حاوَلَ كَريمُ الدّينِ الْمُقاوَمَةَ ، وَلَكِنِ انْدَفَعَ إِلى الحُجْرَةِ في اللَّحْظَةِ نَفْسِها ثَلاثَةُ أَشْخاصٍ مِنْ ذَوي العاهاتِ : أَحَدُهُمْ أَعْرَجُ ، وَالثّاني أَحْدَبُ ، وَالثّالِثُ أَجْدَعُ الأَنْفِ مُشَوَّهُ الوَجْهِ ، وَيَبْدو الإِجْرامُ عَلى وُجوهِهِمْ . وَانْدَفَعوا نَحْوَ كَريمِ الدّينِ ، وَراحوا يَلْكُمونَهُ وَيَضْرِبونَهُ حَتّى فَقَدَ وَعْيَهُ ، فَاسْتَوْلى اللُّصوصُ عَلى حِزامِهِ ، وَقَبَضَ الأَعْوَرُ عَلى الذَّهَبِ في جَشَعٍ ، وَعَيْنُهُ السَّليمَةُ تَكادُ تَخْرُجُ مِنْ مَحْجَرِها ، وَقالَ :

« ما أَكْثَرَ هَذا الذَّهَبَ ! إِنَّني مُنْذُ وَقْتٍ طَويلٍ لَمْ أُشاهِدْ مِثْلَ هَذا القَدْرِ مِنَ الذَّهَبِ ، وَمِنَ الغَباءِ أَنْ يَسيرَ بِهِ إِنْسانٌ وَحْدَهُ . وَلَكِنْ يَبْدو أَنَّ هَذا الشّابَّ أَحْمَقُ بِشَكْلٍ مُنْقَطِعِ النَّظيرِ ، وَهُوَ يَسْتَحِقُّ كُلَّ ما سَيَجْري لَهُ عَلى أَيْدينا .»

صَرَخَ صاحِبُ الخانِ في رِفاقِهِ : « لِنَحْمِلْ هَذا الشّابَّ إِلى الخارِجِ ، وَنُلْقِهِ في الوادي السَّحيقِ ، فَتَتَهَشَّمَ عِظامُهُ وَيَموتَ ، فَلا يَكْتَشِفَ إِنْسانٌ سِرَّ قَتْلِهِ ، وَبِخاصَّةٍ جُنودُ الحاكِمِ الْمُنْتَشِرونَ في كُلِّ

مَكانٍ . وَبَعْدَها يُمْكِنُنا العَوْدَةُ لِنَقْتَسِمَ الذَّهَبَ في أمانٍ .»

أمَّنَ الباقونَ عَلى قَوْلِهِ ، وَأخْفَوْا كَريمَ الدّينِ داخِلَ غِرارَةٍ ، وَحَمَلوهُ مُتَسَلِّلينَ خارِجَ الخانِ مُسْتَتِرينَ بِالظَّلامِ ، وَاقْتَرَبوا مِنْ حافَةِ الوادي العَميقِ ، وَرَفَعوا كَريمَ الدّينِ داخِلَ الغِرارَةِ بَيْنَ أيْديهِمْ . وَفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها اسْتَعادَ كَريمُ الدّينِ وَعْيَهُ ، وَألْفى نَفْسَهُ مُقَيَّداً داخِلَ الغِرارَةِ ، وَأدْرَكَ ما يَحيقُ بِهِ مِنْ خَطَرٍ ، وَالمَصيرَ الَّذي يَنْتَظِرُهُ ؛ فَصَرَخَ في اللُّصوصِ : « لا تَقْتُلوني ! خُذوا ذَهَبي بِأكْمَلِهِ وَلٰكِنِ اتْرُكوني حَيًّا .»

قَهْقَهَ الأعْوَرُ وَأجابَهُ بِصَوْتٍ أجَشَّ : « نَحْنُ لَسْنا أغْبِياءَ لِنَتْرُكَكَ حَيًّا ؛ فَتُرْشِدَ الشُّرْطَةَ إلَيْنا . وَالطَّريقَةُ الوَحيدَةُ الَّتي نَضْمَنُ بِها سُكوتَكَ هِيَ إخْراسُكَ إلى الأبَدِ ! وَأعْتَقِدُ أنَّكَ سَتَتَعَلَّمُ بَعْدَها دَرْساً مُفيداً لِكَيْ لا تَحْمِلَ مِثْلَ هٰذا القَدْرِ مِنَ الذَّهَبِ ، وَتَسيرَ بِهِ في الطُّرُقاتِ . وَلِكَيْ لا تَثِقَ بِالمُجْرِمينَ بَعْدَ ذٰلِكَ .»

وَقَهْقَهَ الأعْوَرُ ثانِيَةً فَشارَكَهُ زُمَلاؤُهُ الضَّحِكَ بِصَوْتٍ عالٍ ، ثُمَّ قَسَتْ عُيونُهُمْ وَتَحَجَّرَتْ ، وَقَبَضَتْ أصابِعُهُمْ عَلى الغِرارَةِ ، وَرَفَعوها بَيْنَ أيْديهِمْ عالِياً ، وَتَهَيَّئوا لإلْقائِها في قَلْبِ الوادي ، دونَ أنْ تَأخُذَهُمْ شَفَقَةٌ بِكَريمِ الدّينِ أوْ رَحْمَةٌ .

الفصل الخامس

الفارسُ المُنْقِذُ

فَجْأَةً عَلا صَوْتٌ حادٌّ غاضِبٌ مِنَ الخَلْفِ يَقولُ : « مَكانَكُمْ أَيُّها المُجْرِمونَ ! ماذا تَفْعَلونَ ؟»

اِلْتَفَتَ اللُّصوصُ الخَمْسَةُ إلى الوَراءِ وَأَصابِعُهُمْ لا تَزالُ قابِضَةً عَلى الغِرارَةِ ، فَشاهَدوا فارِساً مُلَثَّماً مُمْتَطِياً جَواداً أَشْهَبَ ، وَقَدْ تَمَنْطَقَ بِسَيْفٍ لَهُ نَصْلٌ رَهيبٌ .

وَهَمَسَ ذو الذِّراعِ المَبْتورَةِ لِرِفاقِهِ في قَلَقٍ : « إِنَّهُ يَبْدو أَحَدَ رِجالِ الشُّرْطَةِ ، وَلَكِنَّ تَخَفِّيَهُ مُريبٌ .»

هَمَسَ الأَعْوَرُ : « مَهْما كانَ فَهُوَ رَجُلٌ واحِدٌ وَنَحْنُ خَمْسَةٌ . وَإِذا حاوَلَ مُقاوَمَتَنا كانَتْ نِهايَتُهُ أَيْضاً في بَطْنِ الوادي .» ثُمَّ صاحَ في الفارِسِ : « لَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ ، أَيُّها الرَّجُلُ ، أَنْ تَسْأَلَنا عَمّا نَفْعَلُهُ أَيّاً مَنْ كُنْتَ . وَالآنَ ، هَيّا اذْهَبْ بَعيداً وَإِلّا نالَكَ الأَذى مِنّا .»

أجابَهُ الفارِسُ ساخِرًا : « إنّني مُشْتاقٌ لِهَذا الأذى ، ولْتُظْهِروا شَجاعَتَكُمْ .»

حَرَقَ ذو الذِّراعِ المَبْتورَةِ عَلى أنْيابِهِ في غَيْظٍ ، وَقالَ : « حَسَنًا . سَوْفَ تَكونُ نِهايَتُكَ عَلى أيْدينا ، أيُّها المُتَطَفِّلُ ، فاسْتَعِدَّ لِتُلاقِيَ نِهايَتَكَ !»

وَألْقى اللُّصوصُ الخَمْسَةُ بِالغِرارَةِ عَلى الأرْضِ ، وَأشْهَروا سُيوفَهُمْ وَخَناجِرَهُمْ ، وَانْدَفَعوا مَعًا في اتِّجاهِ الفارِسِ لِيُحيطوا بِهِ عَلى شَكْلِ قَوْسٍ مِنَ الأمامِ .

وَظَلَّ الفارِسُ مَكانَهُ دونَ أنْ يُرْهِبَهُ هُجومُ اللُّصوصِ ، ثُمَّ تَحَرَّكَ في اللَّحْظَةِ الحاسِمَةِ مُتَفادِيًا سَيْفَ ذي الذِّراعِ المَبْتورَةِ ؛ إذْ تَراجَعَ بِجَوادِهِ في مَهارَةٍ لِلْخَلْفِ ، وَتَلَقّى ضَرْبَةَ صاحِبِ الخانِ فَوْقَ دِرْعِهِ، ثُمَّ عاجَلَهُ بِضَرْبَةٍ مِنْ قَدَمِهِ أطاحَتْ بِهِ بَعيدًا ، وَقَفَزَ الفارِسُ مِنْ فَوْقِ جَوادِهِ ، مُتَحاشِيًا طَعْنَةَ ثاني المُهاجِمينَ ، وَبِضَرْبَةِ سَيْفٍ بارِعَةٍ أصابَ ذِراعَهُ ، فَسَقَطَ المُهاجِمُ عَلى الأرْضِ يَصْرُخُ مِنَ الألَمِ .

وَانْدَفَعَ الأعْوَرُ في غَضَبٍ ، صارِخًا : « سَوْفَ تَكونُ نِهايَتُكَ عَلى يَدَيَّ أيُّها المُتَطَفِّلُ !»

وَشارَكَهُ زَميلاهُ هُجومَهُ ، وَهَوَتْ سُيوفُهُمْ فَوْقَ الفارِسِ ، وَلَكِنَّهُ



تَلَقّاها فَوْقَ دِرْعِهِ ، وَبِسَيْفِهِ أطاحَ بِسُيوفِ مُهاجِميهِ بِضَرْبَةٍ واحِدَةٍ. وَطارَتْ قَبْضَتُهُ مِثْلَ العاصِفَةِ فَهَشَّمَتْ فَكَّ أَوَّلِ مُهاجِميهِ وَأَسْقَطَتْ أَسْنانَهُ ، وَحَطَّمَتْ أَنْفَ الثّاني وَسَوَّتْهُ بِوَجْهِهِ ، ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ في مَعِدَةِ الأَعْوَرِ ، فَتَقَوَّسَ عَلى نَفْسِهِ مِنَ شِدَّةِ الأَلَمِ وَقَدْ جَحَظَتْ عَيْنُهُ السَّليمَةُ ، وَتَراجَعَ إِلى الخَلْفِ مِنْ شِدَّةِ الضَّرْبَةِ وَقُوَّتِها ، وَقَبْلَ أَنْ يَتَنَبَّهَ زَلَّتْ قَدَمُهُ ، وَتَهاوى إِلى بَطْنِ الوادي وَهُوَ يُطْلِقُ صُراخاً مُدَوِّياً، ثُمَّ ارْتَطَمَ بِالصُّخورِ العَميقَةِ ، وَتَهَشَّمَتْ عِظامُهُ ، عَلى حينَ تَناثَرَ الذَّهَبُ أَسْفَلَ الوادي بَيْنَ شُقوقِ الصُّخورِ .

وَعِنْدَما شاهَدَ بَقِيَّةُ اللُّصوصِ ما حَلَّ بِزَميلِهِمْ ؛ تَراجَعوا في خَوْفٍ ، وَانْطَلَقوا هارِبينَ . لَمْ يُحاوِلِ الفارِسُ مُطارَدَةَ اللُّصوصِ ، وَكَأَنَّهُ موقِنٌ مِنْ سُقوطِهِمْ في يَدَيْهِ بِشَكْلٍ ما . وَأَزاحَ لِثامَهُ فَظَهَرَتْ مَلامِحُهُ قاسِيَةً عَنيدَةً ، وَعَيْناهُ تَبْرُقانِ كَما لَوْ كانَتا تُشِعّانِ بِالذَّهَبِ. وَاقْتَرَبَ الفارِسُ مِنَ الغِرارَةِ المُلْقاةِ أَمامَهُ ، فَاسْتَمَعَ إِلى أَنينِ شَخْصٍ بِداخِلِها ، فَأَسْرَعَ بِحَلِّها . وَلَمْ يُصَدِّقْ كَريمُ الدّينِ نَجاتَهُ ؛ عَلى تِلْكَ الصّورَةِ المُفاجِئَةِ ، وَتَطَلَّعَ حَوْلَهُ في خَوْفٍ وَهُوَ يَرْتَجِفُ ، قائِلاً : « أَيْنَ اخْتَفى هَؤُلاءِ اللُّصوصُ الأَشْرارُ ؟ لَقَدْ أَوْشَكوا عَلى قَتْلي وَإِلْقائي في بَطْنِ الوادي . لا أُصَدِّقُ أَنَّني نَجَوْتُ مِنْهُمْ وَلا أَزالُ حَيًّا .»

وَتَنَبَّهَ إلى وُجودِ الفارِسِ ، فَتَأَمَّلَهُ قَليلاً وَسَأَلَهُ : « مَنْ تَكونُ أَيُّها الفارِسُ ؟ هَلْ أَنْتَ البَطَلُ الَّذي سَمِعْتُ صَوْتَ قِتالِهِ لِهَؤُلاءِ اللُّصوصِ ؟»

أَجابَهُ الفارِسُ مُتَجَهِّماً : « هَذا صَحيحٌ . وَلِحُسْنِ الحَظِّ أَنَّني قَدِمْتُ في لَحْظَةٍ مُناسِبَةٍ لإيقافِ هَؤُلاءِ المُجْرِمينَ ؛ فَقَدْ شاهَدْتُهُمْ يَحْمِلونَ غِرارَةً يوشِكونَ أَنْ يُلْقوا بِها في الوادي ، فَارْتَبْتُ في أَمْرِهِمْ وَأَمَرْتُهُمْ بِالتَّوَقُّفِ ، وَلَكِنَّهُمْ انْدَفَعوا نَحْوي مُشْهِرينَ سُيوفَهُمْ وَخَناجِرَهُمْ ، مُسْتَهينينَ بِأَنَّني وَحيدٌ وَهُمْ كَثْرَةٌ ، فَنالَهُمْ مِنِّي أَذًى بالِغٌ ، وَسَقَطَ أَحَدُهُمْ في الوادي السَّحيقِ ، وَتَناثَرَ ما كانَ يَحْمِلُهُ مَعَهُ مِنْ ذَهَبٍ بَيْنَ شُقوقِ الصُّخورِ .»

صَرَخَ كَريمُ الدّينِ في جَزَعٍ : « ماذا قُلْتَ أَيُّها الفارِسُ ؟ هَلْ سَقَطَ ذَهَبي في بَطْنِ الوادي ؟ يا لَحَسْرَتي ! لَقَدْ ضاعَ كُلُّ ما أَمْلِكُ ! وَلَكِنَّني لَنْ أَتْرُكَهُ قَبْلَ أَنْ أَسْتَعيدَهُ .»

وَانْدَفَعَ كَريمُ الدّينِ إِلى حافَةِ الوادي ، يُريدُ هبوطَهُ ، وَلَكِنَّ الفارِسَ قَبَضَ عَلى ذِراعِهِ ، وَقالَ لَهُ غاضِباً : « هَلْ جُنِنْتَ ؟ إِنَّ أَحَداً لا يَسْتَطيعُ هُبوطَ هَذا الوادي سالِماً ؛ بِسَبَبِ حِدَّةِ صُخورِهِ وَانْحِدارِها . وَأَيُّ خَطَأٍ كَفيلٌ بِانْزِلاقِ قَدَمَيْكَ وَسُقوطِكَ فَتَهْلِكُ .

وَحَتّى إذا تَمَكَّنْتَ مِنَ الوُصولِ إلى الوادي سالِماً، فَلَنْ تَتَمَكَّنَ مِنِ اسْتِعادَةِ ذَهَبِكَ ، فَقَدْ تَساقَطَ بَيْنَ الصُّخورِ وَاخْتَفى داخِلَها ، وَسَيَتَعَذَّرُ عَلَيْكَ اسْتِرْدادُ قِطْعَةٍ واحِدَةٍ مِنْهُ .»

وَضاقَتْ عَيْناهُ أَكْثَرَ وَهُوَ يُضيفُ : « كَما أَنَّ قاعَ هَذا الوادي يَمْتَلِئُ بِالحَيّاتِ وَالعَقارِبِ السّامَّةِ . وَحَتّى إذا تَمَكَّنْتَ مِنِ اسْتِعادَةِ ذَهَبِكَ بِأَيَّةِ طَريقَةٍ ، فَلَنْ تَتْرُكَ لَكَ هَذِهِ الزَّواحِفُ وَالحَشَراتُ الفُرْصَةَ لِلصُّعودِ مَرَّةً أُخْرى .»

جَلَسَ كَريمُ الدّينِ عَلى أَقْرَبِ صَخْرَةٍ ، وَأَخْفى وَجْهَهُ في أَلَمٍ ، وَقالَ مُتَأَوِّهاً : « يا لَسوءِ حَظّي ! لَقَدْ ضاعَ كُلُّ ما أَمْلِكُ ، بِسَبَبِ هَؤُلاءِ اللُّصوصِ الأَشْرارِ . أَلْفُ دينارٍ مِنَ الذَّهَبِ ضاعَتْ هَباءً مَنْثوراً .»

تَطَلَّعَ الفارِسُ إلى كَريمِ الدّينِ ، وَقَدْ زَوى ما بَيْنَ حاجِبَيْهِ ، وَقالَ لَهُ : « إِنَّكَ تَسْتَحِقُّ ما جَرى لَكَ عَلى أَيَّةِ حالٍ .»

قَفَزَ كَريمُ الدّينِ غاضِباً وَقالَ : « وما الَّذي فَعَلْتُهُ لأَسْتَحِقَّ سَرِقَةَ اللُّصوصِ لي ؟»

أَجابَهُ الفارِسُ : « إذا كانَ الإِنْسانُ مُضْطَرًّا لِحَمْلِ مِثْلِ هَذا القَدْرِ مِنَ الذَّهَبِ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَكونَ قادِراً عَلى حِمايَتِهِ . وَبِالرَّغْمِ



مِنْ أَنَّ مُهاجِميكَ مِنَ اللُّصوصِ كانوا خَمْسَةً مِنْ ذَوي العاهاتِ ، وَيَكْفي سَيْفٌ أَوْ رُمْحٌ لِتَفْرِقَتِهِمْ أَوْ إِخافَتِهِمْ ، فَإِنَّكَ لَمْ تَسْتَطِعْ مُقاوَمَةَ أَحَدِهِمْ ، وَكانَ مَصيرُكَ داخِلَ غِرارَةٍ مُغْلَقَةٍ ، تَكادُ تَسْقُطُ في هُوَّةِ الوادي ، كَأَنَّكَ شاةٌ ذَبيحَةٌ لا حَوْلَ لَها وَلا قُوَّةَ ، بِالرَّغْمِ مِمّا أَراهُ مِنْ كَمالِ جَسَدِكَ وَاسْتِقامَةِ عودِكَ وَتَمامِ صِحَّتِكَ ؛ مِمّا يُؤَهِّلُكَ لِأَنْ تَكونَ مُبارِزاً أَوْ مُقاتِلاً ماهِراً .»

أَحَسَّ كَريمُ الدّينِ بِالخَجَلِ ، وَقالَ : « وَلَكِنّي لا أُجيدُ المُبارَزَةَ أَوِ اسْتِعْمالَ السَّيْفِ ، فَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنّني سَأَحْتاجُ إِلَيْهِما أَبَداً .»

ضاقَتْ عَيْنا الفارِسِ في قَساوَةٍ أَكْثَرَ ، وَقالَ : « هَذا عُذْرٌ أَقْبَحُ مِنْ ذَنْبٍ ! فَما الَّذي يَمْنَعُ شابا مِثْلَكَ مَوْفورَ القُوَّةِ وَالصِّحَّةِ مِنْ تَعَلُّمِ المُبارَزَةِ ؛ لِيَكونَ قادِراً ، في الوَقْتِ المُناسِبِ ، عَلى الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الآخَرينَ ضِدَّ اللُّصوصِ وَالأَعْداءِ . فَإِذا فَعَلَ كُلُّ شُبّانِ البِلادِ مِثْلَ فِعْلِكَ ، وَاسْتَكانوا لِلدَّعَةِ وَحَياةِ السُّكونِ ، فَمَنْ سَيَتَصَدّى لِلأَعْداءِ إِذا حاوَلوا غَزْوَ البِلادِ وَاسْتِلابَ الأَرْضِ وَالدِّيارِ وَالأَمْوالِ ؟»

أَحَسَّ كَريمُ الدّينِ بِخَجَلٍ شَديدٍ وَلَمْ يَدْرِ ما يَقولُهُ ، وَنَكَّسَ رَأْسَهُ ، ثُمَّ هَمَسَ بِصَوْتٍ خَفيضٍ قائِلاً : « صَدَقْتَ ، يا سَيِّدي الفارِسَ . أَنْتَ مُصيبٌ فيما قُلْتَهُ . وَلَيْتَني تَعَلَّمْتُ النِّزالَ وَالطِّعانَ ،

وَمَهارَةَ السَّيْفِ مِنْ والدِي قَبْلَ وَفاتِهِ ، فَما أَكْثَرَ ما نَصَحَني بِذَلِكَ ! وَلَكِنّي أَعْرَضْتُ عَنْ نَصيحَتِهِ ، وَاسْتَكَنْتُ إِلى حَياةِ الدَّعَةِ وَالْكَسَلِ وَالخُمولِ ، دونَ أَنْ أَدْرِيَ أَنَّ قِلَّةَ خِبْرَتي بِالقِتالِ وَالدِّفاعِ عَنِ النَّفْسِ، قَدْ يُصْبِحُ ثَمَنُها حَياتي ذاتَها .»

سَأَلَهُ الفارِسُ : « مَنْ هُوَ والِدُكَ الَّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ ؟»

أَجابَهُ كَريمُ الدّينِ بِعَيْنَيْنِ مُبَلَّلَتَيْنِ بِالدُّموعِ : « إِنَّهُ رَئيسُ التُّجّارِ السّابِقُ حَكيمُ الدّينِ – رَحِمَهُ اللهُ .»

هَتَفَ الفارِسُ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « هَلْ أَنْتَ حَقًّا ابْنُ رَئيسِ التُّجّارِ حَكيمِ الدّينِ ؟ كَيْفَ لَمْ أَتَنَبَّهْ إِلى ذَلِكَ الشَّبَهِ الكَبيرِ بَيْنَكُما ؟»

وَاحْتَضَنَ الفارِسُ كَريمَ الدّينِ ، وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْناهُ بِالدُّموعِ وَهُوَ يَقولُ : « أَ أَنْتَ حَقًا ابْنُ الغالي حَكيمِ الدّينِ – رَحِمَهُ اللهُ ؟ إِنَّني لا أَكادُ أُصَدِّقُ ما أَراهُ وَأَسْمَعُهُ .»

دَهِشَ كَريمُ الدّينِ ، وَسَأَلَ الفارِسَ : « هَلْ كُنْتَ تَعْرِفُ أَبي ؟»

تَأَمَّلَهُ الفارِسُ في وُدٍّ بالِغٍ ، وَأَجابَهُ : « وَمَنْ في كُلِّ هَذِهِ الأَنْحاءِ لا يَعْرِفُ رَئيسَ التُّجّارِ حَكيمَ الدّينِ ، وَلا يَدينُ لَهُ بِالفَضْلِ ؟ فَهُوَ واحِدٌ مِنَ الأَبْطالِ الَّذينَ خاضوا الحَرْبَ لإِنْقاذِ بِلادِنا

مِنَ التَّتارِ ، عِنْدَما هَجَموا عَلَيها وَحاوَلوا غَزْوَها ، فَرَدّوهُمْ عَلى أَعْقابِهِمْ مَدْحورينَ .»

تَعَجَّبَ كَريمُ الدّينِ ، وَقالَ في دَهْشَةٍ بالِغَةٍ : « إِنَّني لا أَدْري شَيْئًا عَنْ هَذا الأَمْرِ ، وَلَمْ يُخْبِرْني بِهِ إِنْسانٌ وَلا حَتّى والِدي ، فَأَرْجوكَ أَنْ تَقُصَّ عَلَيَّ كُلَّ ما قامَ بِهِ أَبي مِنْ بُطولاتٍ ضِدَّ التَّتارِ.»

قالَ الفارِسُ مُبْتَسِماً : « هَذِهِ حِكايَةٌ طَويلَةٌ ، وَالأَفْضَلُ أَنْ نَعودَ لِمَنْزِلي وَنَرْتاحَ ، ثُمَّ أُخْبِرَكَ بِكُلِّ شَيْءٍ هُناكَ .»

أَرْدَفَ الفارِسُ كَريمَ الدّينِ خَلْفَهُ ، وَانْطَلَقَ بِهِما الجَوادُ إِلى مَنْزِلٍ رَحْبٍ في قَلْبِ المَدينَةِ ، تُحيطُهُ حَديقَةٌ مُثْمِرَةٌ . وَبَعْدَ العَشاءِ قالَ كَريمُ الدّينِ لِلْفارِسِ في شَغَفٍ : « أَخْبِرْني كَيْفَ تَمَّتْ هَزيمَةُ التَّتارِ وَدَحْرُهُمْ ؛ فَالفُضولُ يَكادُ يَقْتُلُني لِمَعْرِفَةِ ما حَدَثَ .»

تَأَلَّقَتْ عَيْنا الفارِسِ بِوَميضٍ مِنَ الذِّكْرى الجَميلَةِ ، وَقالَ : « كانَ هَذا مُنْذُ سَنَواتٍ بَعيدَةٍ ، وَكُنْتُ أَخْطو إِلى عَتَبِ الشَّبابِ ، وَأَعْمَلُ حَدّاداً . وَذاتَ يَوْمٍ أُعْلِنَ عَنْ وُصولِ سَفينَةٍ ضَخْمَةٍ مُحَمَّلَةٍ بِالبَضائِعِ النّادِرَةِ ، وَالجَواهِرِ الثَّمينَةِ ، وَالأَقْمِشَةِ الفاخِرَةِ ، وَالعُطورِ الغالِيَةِ ، فَتَدافَعَ سُكّانُ البِلادِ مِنَ النُّبَلاءِ وَالأَثْرِياءِ مِنْ كُلِّ الأَنْحاءِ ؛ لِيَحْصُلوا عَلى تِلْكَ البَضائِعِ الَّتي جَلَبَها صاحِبُها مِنْ بِلادِ ما وراءَ

البِحارِ ، وَالجُزُرِ النّائِيَةِ الغَريبَةِ .

« وَلَمّا كُنْتُ لا أَمْلِكُ غَيْرَ قوتِ يَوْمي ، وَلَيْسَ مَعي دَنانيرُ وَلا ذَهَبٌ أَشْتَري بِهِ ؛ لِذَلِكَ لَمْ أَهْرَعْ مَعَ المُتَعَجِّلينَ لِلشِّراءِ . وَقَدْ فَعَلَ فِعْلي أَغْلَبُ سُكّانِ المَدينَةِ مِنَ الفُقَراءِ ، فَبِقَدْرِ ما كانَ هُناكَ قِلَّةٌ مِنَ الأَغْنِياءِ امْتَلَكَتْ كُلَّ شَيْءٍ – كانَ هُناكَ كَثيرونَ مِمَّنْ لا يَمْلِكونَ قوتَ يَوْمِهِمْ . وَلكِنَّنا فوجِئْنا بِأَنَّ صاحِبَ تِلْكَ البَضائِعِ ، بَعْدَ أَنْ باعَها لأَثْرِياءِ المَدينَةِ ، جاءَ يَسْعى إِلى كُلِّ الفُقَراءِ ، وَ وَزَّعَ عَلَيْهِمْ نِصْفَ ما حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ مالٍ ؛ فَباتَتْ مَدينَتُنا لَيْلَتَها ، وَقَدْ تَحَوَّلَتِ الدُّموعُ إِلى ابْتِساماتٍ ، وَلَهِجَتِ الأَلْسِنَةُ بِالدُّعاءِ لِذَلِكَ التّاجِرِ الكَريمِ ، رَئيسِ التُّجّارِ حَكيمِ الدّينِ . وَلا عَجَبَ أَنْ ضاعَفَ اللهُ مِنْ رِزْقِهِ وَهُوَ بِذَلِكَ الكَرَمِ وَالإِحْسانِ .»

أَنْصَتَ كَريمُ الدّينِ ذاهِلاً لِما يَقُصُّهُ الفارِسُ ، وَعَضَّ شَفَتَيْهِ بِقَسْوَةٍ عِنْدَما تَذَكَّرَ الفُقَراءَ وَالمُعْوِزينَ الَّذينَ كانَ يَطْرُدُهُمْ عَنْ بابِهِ ، وَيَمْنَعُ عَنْهُمُ الخُبْزَ اليابِسَ ، عَلى حينِ كانَ يَنْعَمُ مَعَ أَصْدِقائِهِ بِكُلِّ الأَطايِبِ وَاللَّذائِذِ .

وَ واصَلَ الفارِسُ حَديثَهُ : « في تِلْكَ الأَثْناءِ مَنَحَني والِدُكَ عَشَرَةَ دَنانيرَ كامِلَةً ، لَمْ أَكُنْ قَدِ امْتَلَكْتُ مِثْلَها في حَياتي ، فَشَكَرْتُهُ ، وَبِهَذا المالِ كَسَوْتُ نَفْسي وَتَناوَلْتُ مِنَ الطَّعامِ ما اشْتَهَيْتُ .»

وَأطْرَقَ الفارِسُ بِرَأسِهِ لَحْظَةً ، ثُمَّ قالَ : « وَفي تِلْكَ الأثْناءِ تَرامَتِ الأنْباءُ لَنا عَنْ طَرِيقِ الحَمامِ الزّاجِلِ ، بِقُرْبِ وُصولِ التّتارِ إلى البِلادِ في حُشودٍ هائِلَةٍ ؛ لِلاسْتيلاءِ عَلى بِلادِنا وَسَلْبِ خَيْراتِها ، فَعَمَّ الذُّعْرُ وَالفَوْضى كُلَّ الأنْحاءِ . وَصارَ كُلُّ إنْسانٍ يُريدُ الهَرَبَ بِحَياتِهِ قَبْلَ مَجيءِ الطّوفانِ ، الّذي لا يَذَرُ وَلا يُبقي عَلى حَياةِ إنْسانٍ : شَيْخًا كانَ أوِ امْرَأةً أوْ طِفْلاً . »

الفصل السادس

هُجومُ التَّتارِ

سَأَلَ كَرِيمُ الدِّينِ فِي دَهْشَةٍ : « وَلِماذا خِفْتُمُ التَّتارَ إِلى هَذا الحَدِّ ؟ أَلَمْ يَكُنْ لَدَيْكُمْ جَيْشٌ لِحِمايَةِ البِلادِ ؟»

هَزَّ الفارِسُ رَأْسَهُ قائِلاً : « نَعَمْ ، لَمْ يَكُنْ لَدَيْنا جَيْشٌ ؛ فَقَدْ كانَتْ بِلادُنا مُقَسَّمَةً مُقاطَعاتٍ مُتَنافِرَةً مُتَحارِبَةً ، كُلٌّ مِنْها يَحْكُمُها أَحَدُ النُّبَلاءِ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ يُهِمُّهُمْ غَيْرُ تَكْدِيسِ المالِ ، وَتَعْيِينِ الحُرّاسِ لِجَمْعِ الضَّرائِبِ ، الَّتِي يُبَدِّدُها النُّبَلاءُ فِي مَلَذّاتِهِمْ ، دونَ أَنْ يُفَكِّروا في تَأْمينِ حُدودِ البِلادِ أَوْ حِمايَتِها . أَمّا الفُقَراءُ أَمْثالُنا فَكانوا يَقومونَ بِالأَعْمالِ الشّاقَّةِ الَّتِي لا تُوَفِّرُ لَهُمْ حَتَّى ما يَسُدُّ رَمَقَهُمْ . وَكانوا هُمُ الوَقودَ المُنْتَظَرَ لِنارِ التَّتارِ .»

سَأَلَ كَرِيمُ الدِّينِ : « ماذا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ ؟»

أَجابَ الفارِسُ : « أَوْشَكَ الأَغْنِياءُ وَالنُّبَلاءُ عَلى الفِرارِ مِنَ البِلادِ،

وَالهَرَبِ مِنْ وَجْهِ التَّتارِ قَبْلَ وُصولِهِمْ ، حامِلِينَ ما غَلا ثَمَنُهُ وَخَفَّ حَمْلُهُ ، تارِكينَ البِلادَ نُهْبَةً لِلأَعْداءِ . وَلَكِنَّ والِدَكَ - رَحِمَهُ اللّٰهُ - صاحَ فيهِمْ بِأَنَّهُ لا يَليقُ أَنْ يَهْرُبَ إِنْسانٌ مِنَ البِلادِ الَّتي أَطْعَمَتْهُ وَأَوَتْهُ ، وَأَغْدَقَتْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْراتِها ، عِنْدَ ظُهورِ الأَعْداءِ . وَأَكْرَمُ لِلإِنْسانِ أَنْ يَموتَ دِفاعاً عَنْ بِلادِهِ وَشَرَفِهِ مِنْ أَنْ يَعيشَ مُهاناً مُغْتَرِباً بَقِيَّةَ حَياتِهِ ، يُطارِدُهُ العارُ وَالذُّلُّ . وَكانَ لِتِلْكَ النَّصيحَةِ أَبْلَغُ الأَثَرِ ؛ فَأَفاقَ الهارِبونَ لأَنْفُسِهِمْ . وَفي الحالِ اخْتاروا مِنْ بَيْنِهِمْ مَجْموعَةً مِنْ أَفْضَلِ الرِّجالِ ، عَلى رَأْسِهِمْ والِدُكَ ، لِقِيادَةِ الدِّفاعِ عَنِ البِلادِ ، وَ وَضْعِ الخُطَطِ لِذَلِكَ .»

اتَّسَعَتْ عَيْنا كَريمِ الدّينِ في ذُهولٍ ، وَقالَ : « إِنَّهُ لَمْ يُفاخِرْ بِذَلِكَ أَمامَ إِنْسانٍ قَطُّ . وَلَكِنْ ماذا فَعَلَ أَبي - رَحِمَهُ اللّٰهُ - لِمُواجَهَةِ التَّتارِ ؟»

أَجابَهُ الفارِسُ : « لَقَدْ أَمَرَ بِأَنْ يَتَبَرَّعَ الأَغْنِياءُ بِنِصْفِ أَمْوالِهِمْ ، فَجُمِعَتْ تِلْكَ الأَمْوالُ ، وَتَمَّ صُنْعُ أَسْلِحَةٍ بِها عَلى عَجَلٍ . ثُمَّ أَمَرَ بِإِقامَةِ سورٍ هائِلٍ يُحيطُ بِشَواطِئِ البِلادِ ، وَجَعَلَ في قَلْبِ السّورِ أَبْراجاً وَقِلاعاً مُحَصَّنَةً ، مِنَ الصَّخْرِ الَّذي لا تُؤَثِّرُ فيهِ طَلَقاتُ المَدافِعِ. وَأَمَرَ بِصُنْعِ مَدافِعَ ضَخْمَةٍ ذاتِ فُوَّهاتٍ عَريضَةٍ حُمِلَتْ إِلى الأَسْوارِ وَالقِلاعِ ، بِحَيْثُ تَظْهَرُ فُوَّهاتُها مِنْ فُتْحاتِ تِلْكَ الأَسْوارِ .

« ثُمَّ أمَرَ بِحَفْرِ خَنْدَقٍ هائِلٍ أمامَ الأسْوارِ لِيَكونَ شَرَكًا لِلْغازِينَ. وَأخيرًا تَجَلَّتْ مَواهِبُهُ في القِتالِ وَالْمُبارَزَةِ ، عِنْدَما قامَ بِتَدْريبِ عَشَراتِ الشُّبّانِ الأقْوِياءِ عَلى حَمْلِ السَّيْفِ ، وَالْمُبارَزَةِ وَإلْقاءِ السِّهامِ ، فَبَرَعوا في ذَلِكَ إلى أقْصى حَدٍّ . وَكُنْتُ أنا أحَدَ هؤُلاءِ الشُّبّانِ ، وَعَلى يَدَيْ والِدِكَ - رَحِمَهُ اللهُ - تَعَلَّمْتُ كُلَّ فُنونِ القِتالِ .»

قالَ كَريمُ الدّينِ دَهِشًا : « وَلَكِنْ ما كانَ عَشَراتُ الشُّبّانِ لِيَسْتَطيعوا الوُقوفَ في وَجْهِ جَحافِلِ التَّتارِ ، مَهْما كانَتْ شَجاعَةُ هؤُلاءِ الشُّبّانِ وَبَسالَتُهُمْ .»

هَزَّ الفارِسُ رَأسَهُ وَقالَ : « هَذا صَحيحٌ ، وَلَكِنْ لَمْ يُعَلِّمْنا رَئيسُ التُّجّارِ القِتالَ إلّا لِنَكونَ مُعَلِّمينَ ، وَنُعَلِّمَ بِدَوْرِنا غَيْرَنا . وَمَنْ كُنّا نُعَلِّمُهُمْ كانوا يَقومونَ بَعْدَها بِتَعْليمِ غَيْرِهِمْ في سِلْسِلَةٍ مُتَّصِلَةٍ ، أخَذَتْ حَلَقاتُها تَتَّسِعُ شَيْئًا فَشَيْئًا لِتَصِلَ إلى القاعِدَةِ العَريضَةِ لِشَعْبِنا. وَخِلالَ وَقْتٍ قِياسِيٍّ كانَ كُلُّ مَنْ يَصْلُحُ لِحَمْلِ السِّلاحِ قَدْ تَعَلَّمَ فُنونَ القِتالِ . وَقَدْ دَرَّبَ والِدُكَ النِّساءَ عَلى التَّمْريضِ وَمُداواةِ الجَرْحى ، وَهَكَذا لَمْ يَبْقَ إنْسانٌ في البِلادِ دونَ أنْ توكَلَ لَهُ مُهِمَّةٌ مُحَدَّدَةٌ ساعَةَ الحَرْبِ . وَعِنْدَما أقْبَلَتْ جَحافِلُ التَّتارِ في سُفُنِهِمُ الَّتي لا حَصْرَ لَها ، كُنّا مُتَأهِّبينَ لِصَدِّهِمْ .»

هَتَفَ كَرِيمُ الدِّينِ في حَماسٍ : « أَخْبِرْني أَيُّها الفارِسُ ، كَيْفَ دارَتْ تِلْكَ المَوْقِعَةُ العَظِيمَةُ ؟ »

قالَ الفارِسُ : « كانَ يَوْماً رَهيباً ، خِلْتُ أَنَّ شَمْسَهُ لَنْ تَغْرُبَ ؛ لِكَثْرَةِ ما شاهَدَتْهُ خِلالَهُ مِنْ أَهْوالٍ ؛ فَقَدْ أَقْبَلَ التَّتارُ وَهُمْ يَظُنّونَ أَنْفُسَهُمْ ذاهِبينَ إِلى نُزْهَةٍ ، فَفاجَأناهُمْ بِوابِلٍ مِنْ حِجارَةِ المَنْجَنيقِ ، الَّتي سَقَطَتْ فَوْقَ سُفُنِهِمْ فَأَحْرَقَتْ بَعْضَها ، وانْطَلَقَتْ قَذائِفُ المَدافِعِ مِنْ فُتُحاتِ الأَسْوارِ وَالقِلاعِ لِتُدَمِّرَ بَعْضاً آخَرَ مِنْ تِلْكَ السُّفُنِ ؛ فَعَمَّ الاضْطِرابُ بَيْنَ صُفوفِ التَّتارِ ، وَعَلَتْ صَيْحاتُهُمْ وَصُراخُهُمْ ، وَارْتَفَعَتْ أَلْسِنَةُ اللَّهَبِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ، كَأَنَّها الجَحيمُ . »

تَساءَلَ كَرِيمُ الدِّينِ في فُضولٍ : « وَهَلِ انْسَحَبَ التَّتارُ مِنْ تِلْكَ المُباغَتَةِ غَيْرِ المُتَوَقَّعَةِ ؟ »

أَجابَهُ الفارِسُ : « لا ؛ فَقَدْ أَغْضَبَهُمْ ما حَدَثَ ، وَأَوْصَلَهُمْ إِلى حافَةِ الجُنونِ ؛ فَقَدْ كانوا يُمَنّونَ أَنْفُسَهُمْ بِأَسْلابٍ وَغَنائِمَ لا حَصْرَ لَها ، فَثارَتْ ثائِرَتُهُمْ حينَ وَجَدوا النّارَ وَالمَوْتَ في انْتِظارِهِمْ ، فَقَفَزَ عَشَراتُ الآلافِ مِنْ سُفُنِهِمْ ، وَسَبَحوا إِلى الشّاطِئِ بِسُيوفِهِمْ وَرِماحِهِمْ ، فَواجَهَهُمُ الخَنْدَقُ الضَّخْمُ .

وَعِنْدَما حاوَلوا عُبورَها أَمَرَ الوالِدُ - رَحِمَهُ اللهُ - بِإِطْلاقِ الزَّيْتِ

المَغْلِيِّ مِنْ أنابيبَ خاصَّةٍ كُنَّا قَدْ جَهَّزْناها لِذَلِكَ ، تَبْدَأُ فُوَّهاتُها مِنْ داخِلِ الأَسْوارِ ، وَتَنْتَهِي في قَلْبِ الحُفْرَةِ الكَبيرَةِ ، فَسَقَطَ التَّتارُ داخِلَ ذَلِكَ الشَّرَكِ المُشْتَعِلِ ، وَماتَ مِنْهُمْ عَدَدٌ كَبيرٌ . أَمّا مَنْ تَمَكَّنَ مِنَ النَّجاةِ وَاقْتَرَبَ مِنَ الأَسْوارِ وَحاوَلَ اعْتِلاءَها ، فَقَدْ واجَهَتْهُمْ آلافُ الفُرْسانِ وَالمُقاتِلينَ ، وَكُنْتُ أنا واحِداً مِنْهُمْ . وَشارَكَ والِدُكَ في القِتالِ الَّذي اسْتَمَرَّ طَوالَ نَهارٍ كامِلٍ ، انْتَهى بِهَزيمَةِ التَّتارِ ، وَهَرَبَ مَنْ بَقِيَ حَيًّا مِنْهُمْ ، وَتَرَكوا خَلْفَهُمْ مِئاتِ السُّفُنِ ؛ فَاسْتَوْلَيْنا عَلَيْها وَأَعَدْنا إِصْلاحَها وَتَشْغيلَها ؛ فَصارَ لِبِلادِنا أُسْطولٌ ضَخْمٌ مِنَ السُّفُنِ الحَرْبِيَّةِ ، فَاحْتَفَظْنا بِبَعْضِها كَما هِيَ لِحِمايَةِ شَواطِئِ البِلادِ ، وَحَوَّلْنا بَعْضَها الآخَرَ إِلى سُفُنٍ تِجارِيَّةٍ ، صارَتْ تَجوبُ البِلادَ وَتُتاجِرُ بِالبَضائِعِ وَتَحْمِلُ الخَيْرَ العَميمَ لِبِلادِنا ، فَتَمَّ تَوْزيعُهُ عَلى كُلِّ السُّكّانِ بِالعَدْلِ وَالقِسْطاسِ . أَمّا التَّتارُ فَلَمْ يُحاوِلوا غَزْوَ بِلادِنا ثانِيَةً ، بَعْدَ أَنْ قُمْنا بِدَفْنِ قَتْلاهُمْ داخِلَ حُفْرَةِ الزَّيْتِ المَغْلِيِّ ، وَأَعَدْنا رَدْمَها؛ فَصارَتْ شاهِداً عَلى ما حَلَّ بِهَؤُلاءِ الغُزاةِ المُتَوَحِّشينَ .»

قالَ كَريمُ الدّينِ في صَوْتٍ مُتَوَتِّرٍ : « ماذا فَعَلَ أَبي بَعْدَ هَزيمَةِ التَّتارِ ؟»

أَجابَهُ الفارِسُ : « إِنَّ والِدَكَ لَمْ يَكُنْ طامِعاً في جاهٍ أَوْ سُلْطَةٍ؛ فَقَدْ رَحَلَ عَنْ بِلادِنا وَعادَ إِلى مُمارَسَةِ عَمَلِهِ رَئيساً لِلتُّجّارِ ؛ فَخَرَجَ

كُلُّ شَعْبِنا لِوَداعِهِ في مَوْكِبٍ عَظيمٍ . وَالآنَ اسْتَقَرَّتِ الأَحْوالُ في بِلادِنا وَعَمَّها الرَّخاءُ ، وَلَمْ يَعُدْ فيها مُعْدِمونَ أَوْ فُقَراءُ بِفَضْلِ حِكْمَةِ رَئيسِ التُّجّارِ ، وَلَيْسَ هُناكَ غَيْرُ قِلَّةٍ مِنَ اللُّصوصِ الَّذينَ يَفِدونَ إِلَيْنا مِنْ بِلادٍ أُخْرى ، أَوْ مِنَ القَراصِنَةِ الَّذينَ يَهْرُبونَ مِنْ أَحْكامِ الإِعْدامِ في بِلادِهِمْ ، وَيَخْتَفونَ في بِلادِنا لِيُمارِسوا السَّرِقَةَ، كَما حَدَثَ مَعَكَ ؛ وَلِهَذا صِرْتُ أَخْرُجُ كُلَّ لَيْلَةٍ لأَتَفَقَّدَ حالَةَ الأَمْنِ في البِلادِ ، واصْطِيادِ الخارِجينَ عَلى القانونِ ، وَحِمايَةِ الأَبْرِياءِ . وَثِقْ بِأَنَّ هَؤُلاءِ الأَشْرارَ الَّذينَ حاوَلوا قَتْلَكَ ، سَيَقَعونَ في قَبْضَةِ العَدالَةِ في أَقْرَبِ وَقْتٍ .»

أَطْرَقَ كَريمُ الدّينِ بِرَأْسِهِ ، وَشَحَبَ وَجْهُهُ ، وَقالَ : « إِنَّني شاكِرٌ صَنيعَكَ ، يا سَيِّدي ، وَإِنْقاذَكَ لِحَياتي . وَلَكِنّي لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّ أَبي كانَ بَطَلاً إِلى هَذا الحَدِّ ؛ فَلَمْ يَكُنْ يُحِبُّ الحَديثَ عَنْ نَفْسِهِ قَطُّ. وَكانَ دائِمَ السَّفَرِ وَالتَّنَقُّلِ ؛ وَرُبَّما لِذَلِكَ لَمْ يُتَحْ لي أَنْ أَعْرِفَ مِنْهُ كُلَّ تِلْكَ القِصَصِ وَالبُطولاتِ .»

زَوى الفارِسُ ما بَيْنَ حاجِبَيْهِ ، وَقالَ دَهِشاً : « وَلَكِنّي أَتَعَجَّبُ في الوَقْتِ نَفْسِهِ : كَيْفَ تَكونُ ابْنَ رَئيسِ التُّجّارِ ، هَذا البَطَلِ المِقْدامِ ، وَتَجْهَلُ في الوَقْتِ نَفْسِهِ كَيْفِيَّةَ امْتِشاقِ السَّيْفِ وَالمُبارَزَةِ ، وَالدِّفاعِ عَنْ نَفْسِكَ ؟»

عَضَّ كَرِيمُ الدِّينِ شَفَتَيْهِ في أسًى وَنَدَمٍ ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِشَيْءٍ ، وَتَمَنَّى لَوْ عادَتِ الأيّامُ الضّائِعَةُ .

رَبَّتَ الفارِسُ عَلى كَتِفِهِ قائِلاً : « مِنَ الغَدِ سَوْفَ أُعَلِّمُكَ كُلَّ فُنونِ القِتالِ وَالْمُبارَزَةِ وَرَمْيِ السِّهامِ ؛ فَهَذا أَقَلُّ ما يُمْكِنُ أَنْ أُقَدِّمَهُ لابْنِ الرَّجُلِ الَّذي عَلَّمَني كُلَّ هَذِهِ المَهاراتِ ، وشارَكَ في إنْقاذِ بِلادي مِنَ الأَعْداءِ .»

فاضَتْ عَيْنا كَريمِ الدِّينِ بِالدُّموعِ ، وَعانَقَ الفارِسَ في امْتنانٍ عَميقٍ ، ثُمَّ نامَ قَريرَ العَيْنِ .

في الصَّباحِ وَجَدَ مَلابِسَ جَديدَةً نَظيفَةً في انْتِظارِهِ ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ تَناوَلَ إفْطارًا شَهِيًّا . وَبَدَأَتْ بَعْدَ قَليلٍ دُروسُ تَعَلُّمِ كَريمِ الدِّينِ فُنونَ القِتالِ وَالْمُبارَزَةِ وَرُكوبِ الخَيْلِ .

كانَتِ الدُّروسُ شاقَّةً ، وَلَكِنَّ كَريمَ الدِّينِ أَخْفى تَعَبَهُ وَبَذَلَ كُلَّ مَجْهودِهِ ، وَخِلالَ وَقْتٍ قياسِيٍّ أجادَها ، فَصارَ يُصارِعُ الفارِسَ صِراعَ النِّدِّ لِلنِّدِّ ، بَلْ كانَ يَتَفَوَّقُ عَلَيْهِ أَحْيانًا .

قالَ الفارِسُ ضاحِكًا : « لَقَدْ فاقَ التِّلْميذُ أُسْتاذَهُ .»

قالَ كَريمُ الدِّينِ ، في حَياءٍ : « أَرْجو ألا يُغْضِبَكَ ذَلِكَ ، يا سَيِّدي .»

ضَحِكَ الفارِسُ أَكْثَرَ ، وَقالَ : « كَيْفَ يُغْضِبُني ذَلِكَ ، وَهُوَ نَفْسُ ما حَدَثَ لي مَعَ والِدِكَ ؟ »

تَمْتَمَ كَريمُ الدّينِ قائِلاً : « رَحِمَ اللهُ والِدي ؛ فَإِنَّني أَدينُ لَهُ بِأَشْياءَ كَثيرَةٍ جِدًّا . »

قالَ الفارِسُ : « وَالآنَ بَعْدَ أَنْ تَتَناوَلَ غَداءَنا ، سَتَكونُ ثَمَّةَ مُفاجَأَةٌ في انْتِظارِكَ . »

اِغْتَسَلَ كَريمُ الدّينِ ، وَتَناوَلَ طَعامَهُ وَهُوَ قَلِقٌ بِشَأْنِ تِلْكَ المُفاجَأَةِ الَّتي حَدَّثَهُ عَنْها الفارِسُ ، وَفوجِئَ بِدُخولِ بَعْضِ الحُرّاسِ المُدَجَّجينَ بِالسِّلاحِ ، وَقَدْ أَمْسَكوا بِرَقَبَةِ اللُّصوصِ الَّذينَ هاجَموهُ وَسَرَقوا مالَهُ .

أَدّى أَحَدُ الحُرّاسِ التَّحِيَّةَ لِلْفارِسِ ، قائِلاً : « لَقَدْ أَمْسَكْنا بِاللُّصوصِ ، يا سَيِّدي الحاكِمَ . »

لَمْ يُصَدِّقْ كَريمُ الدّينِ ما سَمِعَهُ ، وَتَطَلَّعَ إِلى الفارِسِ ، الَّذي قالَ لِلْحارِسِ : « خُذوهُمْ إِلى القاضي الآنَ ؛ لِيَنْظُرَ في أَمْرِهِمْ . »

أَدّى الحُرّاسُ التَّحِيَّةَ وَانْصَرَفوا ، وَالْتَفَتَ كَريمُ الدّينِ ذاهِلاً إِلى الفارِسِ ، وسَأَلَهُ : « هَلْ أَنْتَ حاكِمُ هَذِهِ البِلادِ ؟ »

أَجابَهُ الفارِسُ في بَساطَةٍ : « ما العَجيبُ في ذَلِكَ ؟ لَقَدْ تَوَلَّيْتُ مَسْئولِيّاتٍ كَثيرَةً ، وَتَدَرَّجْتُ في المَناصِبِ مِنْ قائِدٍ لِلْجَيْشِ وَالشُّرْطَةِ

إلى وَزيرٍ ، حَتّى صِرْتُ مُؤَهَّلاً لأَنْ أكونَ حاكِمَ البِلادِ .»

قالَ كَريمُ الدّينِ : « لَقَدْ عَلَّمْتَني الكَثيرَ ، يا سَيِّدي ، وَسَأَدينُ بِفَضْلِكَ طَوالَ عُمْري .»

أَجابَهُ الحاكِمُ : « بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَدينَ لِوالِدِكَ رَئيسِ التُّجّارِ ، رَحِمَهُ اللّٰه ؛ فَهُوَ الَّذي عَلَّمَنا جَميعاً .»

نَهَضَ كَريمُ الدّينِ قائِلاً : « إِنَّني أَشْكُرُ لَكَ كُلَّ ما قَدَّمْتَهُ لي ، يا سَيِّدي . وَلٰكِنِ اسْمَحْ لي بِالرَّحيلِ .»

« إِلى أَيْنَ ؟»

« ثَمَّةَ رِحْلَةٌ يَجِبُ أَنْ أُتِمَّها إِلى جَبَلِ الحِكْمَةِ ؛ لأُقابِلَ النّاسِكَ المُتَعَبِّدَ الَّذي يَعيشُ هُناكَ ، فَلي طَلَبٌ خاصٌّ عِنْدَهُ .»

قَطَّبَ الحاكِمُ الفارِسُ حاجِبَيْهِ ، وَقالَ : « إِنَّني لَمْ أَسْأَلْكَ لِماذا تُريدُ الذَّهابَ إِلى جَبَلِ الحِكْمَةِ ، وَلٰكِنْ كُلُّ ما يُمْكِنُني قَوْلُهُ لَكَ هُوَ أَنَّ هٰذِهِ الرِّحْلَةَ شاقَّةٌ مُهْلِكَةٌ ، لَمْ يَنْجُ مِنْها إِنْسانٌ ؛ فَعَلَيْكَ أَوَّلاً أَنْ تَجْتازَ أَرْضَ الغيلانِ العَمْياءِ ، وَهِيَ مِنَ المَرَدَةِ المُتَوَحِّشَةِ الَّتي لا تَسْمَحُ لأَحَدٍ بِاجْتِيازِ أَرْضِها ، وَهِيَ تَلْتَهِمُ كُلَّ مَنْ يَسْقُطُ في أَيْديها . فَإِذا نَجَوْتَ مِنْها فَعَلَيْكَ أَنْ تُواصِلَ السَّفَرَ جِهَةَ الغَرْبِ لِشَهْرَيْنِ ، وَبَعْدَها سَيَكونُ عَلَيْكَ اجْتِيازُ أَرْضِ الأَقْزامِ ، الباحِثينَ عَن

الحِكْمَةِ ، قَبْلَ أنْ تَصِلَ إلى جَبَلِ الحِكْمَةِ .»

قالَ كَرِيمُ الدّينِ في إصْرارٍ : « وَلَكِنّي عَلى كُلِّ حالٍ سَأُحاوِلُ ، يا سَيِّدي . فَلَنْ أَتَراجَعَ بَعْدَ أنْ قَطَعْتُ كُلَّ هَذِهِ المَسافَةِ ، وَقابَلْتُ كُلَّ هَذِهِ المَصاعِبِ وَالمَشاقِّ .»

رَبَّتَ الحاكِمُ عَلى كَتِفِهِ قائِلاً : «اِبْقَ مَعي اليَوْمَ ، وارْحَلْ غَداً.»

وافَقَ كَرِيمُ الدّينِ ، وَانْقَضى اليَوْمُ وَكَريمُ الدّينِ يَتَأَهَّبُ لِلرَّحيلِ . وَفي الصَّباحِ اسْتَقْبَلَهُ الحاكِمُ الفارِسُ قائِلاً : « ها هِيَ ذي الأَلْفُ دينارٍ الذَّهَبِيَّةُ الَّتي سَطا عَلَيْها اللُّصوصُ ، قَدْ رُدَّتْ إلَيْكَ ثانِيَةً .»

رَفَضَ كَرِيمُ الدّينِ أنْ يَمَسَّها قائِلاً : « وَلَكِنّي لا أَقْبَلُ عِوَضاً مِنْ أَحَدٍ ، يا سَيِّدي .»

قالَ الحاكِمُ : « مَنْ قالَ إنَّ هَذا المالَ عِوَضٌ عَنْ مالِكَ ؟ فَهَذا مالُكَ ، وَقَدْ أَمَرَ القاضي بِسَجْنِ اللُّصوصِ ، وَتَعْويضِكَ عَمّا سَرَقوهُ، فَصادَرْنا كُلَّ أَمْلاكِهِمْ ، وَبِعْناها بِالأَمْسِ ، وَهَذا هُوَ ثَمَنُها ؛ وَلِهَذا طَلَبْتُ مِنْكَ البَقاءَ حَتّى الصَّباحِ ، قَبْلَ رَحيلِكَ .»

قَبِلَ كَرِيمُ الدّينِ المالَ شاكِراً ، فَقالَ الحاكِمُ : « وَالآنَ ، هَلْ تَقْبَلُ مِنّي هَدِيَّةً مُتَواضِعَةً : إنَّها جَوادِيَ الأَشْهَبُ ؛ فَسَتَحْتاجُ إلَيْهِ في رِحْلَتِكَ ، وَهُوَ جَوادٌ لا مَثيلَ لَهُ في سُرْعَتِهِ وَقُوَّةِ تَحَمُّلِهِ . وَقَدْ



وَضَعْتُ فَوْقَ سَرْجِهِ صُنْدوقًا لِلْكُتُبِ ، فَقَدْ تَحْتاجُها في رِحْلَتِكَ . فَهَذِهِ الكُتُبُ ذِكْرى عَزيزَةٌ مِنْ والِدِكَ ، مَنَحَها لي ذاتَ يَوْمٍ ؛ فَأَفادَتْني كَثيراً . وَأَنا أَرُدُّها إِلَيْكَ ، فَقَدْ تُفيدُكَ كَما أَفادَتْني .»

أَجابَهُ كَريمُ الدّينِ : « شُكْرًا لَكَ ، يا سَيِّدي الحاكِمَ ، عَلى هَدِيَّتِكَ. وَإِنْ كُنْتُ لا أَرى فائِدَةً لِهَذِهِ الكُتُبِ إِلّا أَنَّني لَنْ أَرُدَّها ؛ فَقَدْ تَكونُ لَها فائِدَةٌ لا أَدْريها .»

وَعِنْدَما عَرَضَ الحاكِمُ أَنْ يَصْطَحِبَ كَريمَ الدّينِ بَعْضُ الفُرْسانِ لِحِمايَتِهِ في رِحْلَتِهِ ؛ رَفَضَ ذَلِكَ ، وَقالَ لَهُ : « بَعْدَ أَنْ عَلَّمْتَني فُنونَ القِتالِ وَالْمبارَزَةِ وَالدِّفاعِ عَنِ النَّفْسِ ، فَإِنَّني لَمْ أَعُدْ بِحاجَةٍ إِلى حِمايَةٍ ، يا سَيِّدي ، وَعَلَيَّ أَنْ أَعْتَمِدَ عَلى نَفْسي تَمامًا ، كَما كانَ يَفْعَلُ والِدي ، رَحِمَهُ اللهُ .»

رَبَّتَ الحاكِمُ عَلى كَتِفِهِ ، وَقالَ لَهُ : « هَذا هُوَ ما كُنْتُ أَنْتَظِرُهُ مِنْكَ أَيُّها الشّابُّ ؛ فَأَنْتَ حَقًا ابْنُ رَئيسِ التُّجّارِ حَكيمِ الدّينِ .»

خَرَجَ الحاكِمُ لِوَداعِ كَريمِ الدّينِ ، وَأَشارَ لَهُ جِهَةَ الشَّرْقِ قائِلاً: « سِرْ في هَذا الاتِّجاهِ ، وَسَتَبْلُغُ أَرْضَ الغيلانِ العَمْياءِ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ بِتَمامِها .»

شَكَرَهُ كَريمُ الدّينِ ، وَلَكَزَ الجَوادَ الأَشْهَبَ ، فَانْطَلَقَ بِهِ جِهَةَ الشَّرْقِ كَأَنَّهُ الرّيحُ العاصِفُ .

الفصل السابع

أرْضُ الغيلانِ العَمْياءِ

عَبَرَ كَريمُ الدّين في رِحْلَتِهِ إلى أرْضِ الغيلانِ مَفاوِزَ وَ وِهاداً ، وَمَرَّ بِجِبالٍ وَتِلالٍ ، وَاجْتازَ بُحَيْراتٍ وَأَنْهاراً ، حَتّى انْصَرَمَتِ الأَشْهُرُ الثَّلاثَةُ كامِلَةً . وَكانَ يَشْغَلُ نَفْسَهُ أَحْياناً ، في أَوْقاتِ راحَتِهِ وَتَوَقُّفِهِ ، بِقِراءَةِ الكُتُبِ الَّتي مَنَحَها لَهُ الحاكِمُ الفارِسُ . وَكانَتْ عَنْ طُرُقِ الزِّراعَةِ وَصِناعَةِ الأَواني وَالغَزْلِ وَالنَّسْجِ وَتَشْييدِ المَساكِنِ ، فَلَمْ يَهْتَمَّ كَريمُ الدّينِ بِها ، وَأَعادَها إلى مَكانِها . وَخِلالَ رِحْلَتِهِ صادَفَ صِعاباً جَمَّةً ؛ فَعَبَرَ صَحْراواتٍ قاحِلَةً يابِسَةً ، لَمْ يُنْجِهِ مِنْها غَيْرُ مَعْرِفَتِهِ بِأَسْرارِها ، وَسُلوكِهِ الطَّريقَ الصَّحيحَ لِعُبورِها ، مُسْتَفيداً بِما عَلَّمَهُ لَهُ شَيْخُ القافِلَةِ ، صَديقُ والِدِهِ .

وَاشْتَرى جَمَلاً إلى جِوارِ جَوادِهِ ، وَصارَ يُسافِرُ لَيْلاً وَيَرْتاحُ نَهاراً . ثُمَّ عَبَرَ مُحيطاً هائِجاً بِسَفينَةٍ صَغيرَةٍ قادَها في بَراعَةٍ ، حَتّى وَصَلَ

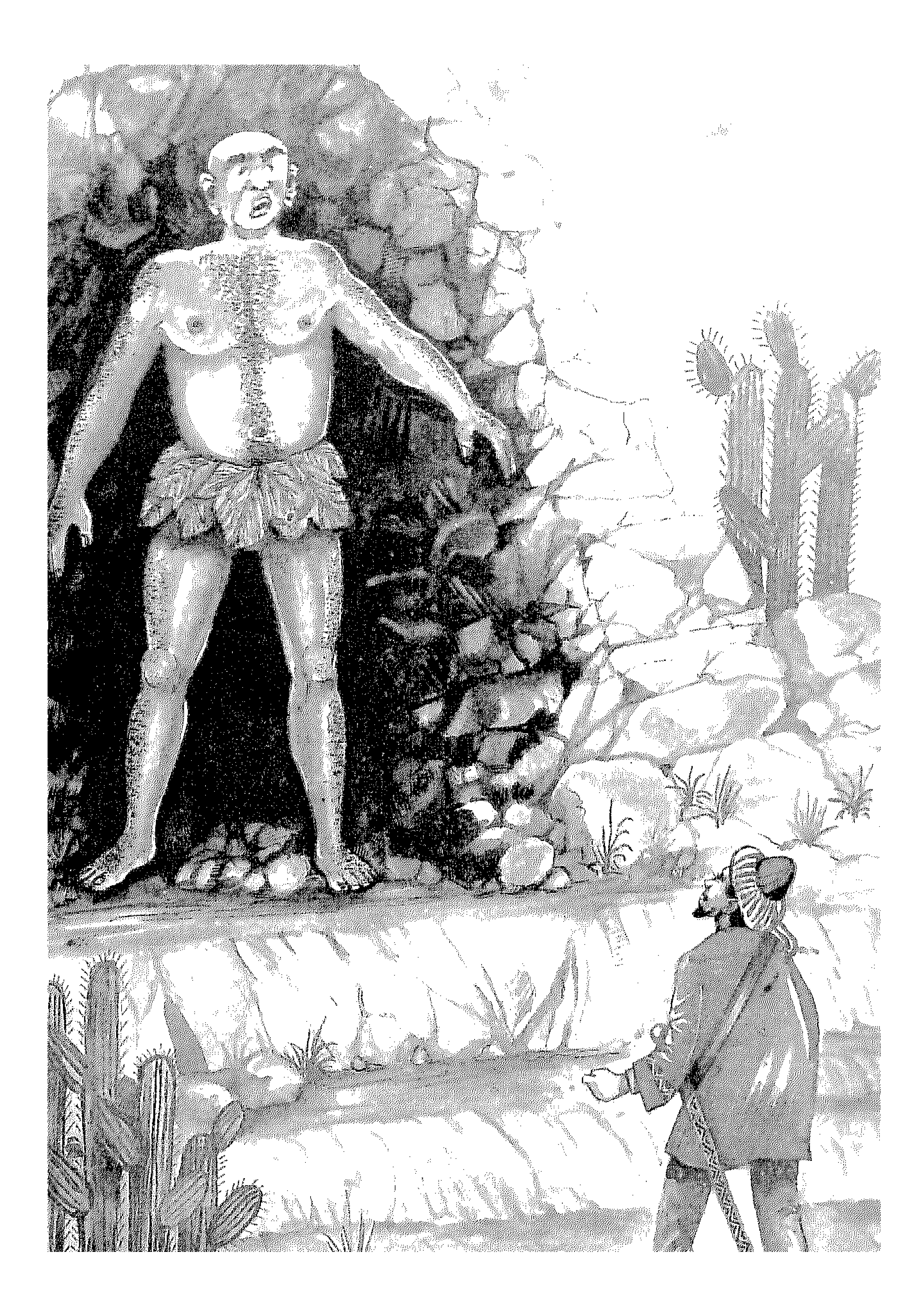
البَرَّ سالِماً ، وَعاوَدَ امْتِطاءَ جَوادِهِ أيّاماً عَديدَةً دونَ كَلَلٍ .

وَأخيراً بَدَتْ عَلى البُعْدِ أرْضٌ جَرْداءُ قاحِلَةٌ ، يَسْكُنُها الصَّمْتُ ، وَيُغَلِّفُها الغُموضُ ، وَتَسودُها الرَّهْبَةُ ، وَيَتَخَلَّلُها نَهرٌ صَغيرٌ عَذْبُ المِياهِ ، يَنْتَهي عِنْدَ غابَةٍ تَبْدو قاحِلَةً ، أشْجارُها يابِسَةٌ بِلا ثَمرٍ وَلا زَرْعٍ .

تَرَجَّلَ كَريمُ الدّينِ عَنْ جَوادِهِ ، وَقالَ لِنَفْسِهِ : « هَذِهِ هِيَ أرْضُ الغيلانِ دونَ شَكٍّ ؛ فَإنَّ مَنْظَرَها مُقْبِضٌ ، وَشَكْلَها مُخيفٌ . وَلَكِنْ أيْنَ اخْتَفى سُكّانُها ، وَهُمْ مِنَ المَرَدَةِ الَّذينَ يَصْعُبُ تَواريهِمْ ؟»

وَفَجْأةً شَقَّتِ السُّكونَ صَرْخَةٌ حادَّةٌ عالِيَةٌ مُخيفَةٌ ، كَأنَّها صَرْخَةُ عِفْريتٍ أوْ جانٍّ ، فاهْتَزَّ كَريمُ الدّينِ مِنَ الرُّعْبِ ؛ إذْ شاهَدَ أحَدَ الغيلانِ يَظْهَرُ مِنْ فُتْحَةِ كَهْفٍ في جَبَلٍ هائِلِ الارْتِفاعِ ، كَأنَّهُ يَمَسُّ السَّحابَ . وَكانَ طولُ هَذا الغولِ يَزيدُ على خَمْسَةِ أمْتارٍ ، وَلَهُ شَكْلٌ بَشِعٌ وَجَسَدٌ ضَخْمٌ مَكْسُوٌّ بِالشَّعْرِ ، وَأصابِعُهُ مِثْلُ المَخالِبِ . كَما كانَتْ عَيْناهُ مُغْلَقَتَيْنِ ، وَأذُناهُ كَبيرَتَيْنِ ، وَقَدَماهُ تَدِبّانِ عَلى الأرْضِ كَما لَوْ كانَتا قَدَمَيْ فيلٍ . وَلا يَسْتُرُهُ غَيْرُ بَعْضِ أوْراقِ الأشْجارِ في شَكْلِ مِئْزَرٍ يَسْتُرُ الجُزْءَ الأسْفَلَ مِنْهُ .

هَمَسَ كَريمُ الدّينِ لِنَفْسِهِ : « لا بُدَّ أنَّ الغيلانَ تَخْتَفي داخِلَ



هَذا الكَهْفِ ، وَسَتُسْرِعُ بِالخُروجِ ، وَتَقْطَعُ عَلَيَّ الطَّريقَ ! وَالأَفْضَلُ أَنْ أُبادِرَ بِالهَرَبِ وَتَجاوُزِ هَذا الجَبَلِ .»

وَقَفَزَ إلى جَوادِهِ ، وَلَكَزَهُ بِقَدَمَيْهِ صائِحاً : « فَلْنُسْرِعْ بِالرَّكْضِ ، يا أَشْهَبُ ، قَبْلَ أَنْ نَسْقُطَ في أَيْدي تِلْكَ الغيلانِ المُتَوَحِّشَةِ ، فَلَنْ تَأْخُذَهُمْ بِنا رَحْمَةٌ وَلا شَفَقَةٌ .»

انْطَلَقَ الجَوادُ كالسَّهْمِ ، وَانْدَفَعَ بِكُلِّ سُرْعَتِهِ جِهَةَ الشَّرْقِ، وَلَكِنْ وَمِنْ وَراءِ الجَبَلِ ظَهَرَ عَدَدٌ آخَرُ مِنَ الغيلانِ ، سَدَّ الطَّريقَ أَمامَ كَريمِ الدّينِ ، فَجَذَبَ لِجامَ جَوادِهِ ، وَانْدَفَعَ في الاتِّجاهِ المُعاكِسِ ناحِيَةَ الغَرْبِ ؛ صَوْبَ الغابَةِ البَعيدَةِ .

وَلَكِنَّ عَدَداً آخَرَ مِنَ الغيلانِ ظَهَرَ مِنْ قَلْبِ الغابَةِ ، وَسَدَّ الطَّريقَ عَلى كَريمِ الدّينِ ، فَتَراجَعَ مُحاوِلاً الفِرارَ مِنْ أَيِّ اتِّجاهٍ ، وَلَكِنَّهُ شاهَدَ الغيلانَ تُحيطُ بِهِ في شَكْلِ دائِرَةٍ ، فَهَتَفَ في سُخْطٍ : « كَيْفَ تَمَكَّنَتْ هَذِهِ الغيلانُ مِنْ رُؤْيَتي وَحِصاري بِمِثْلِ تِلْكَ الصّورَةِ ، وَهِيَ لا تُبْصِرُ ؟»

وَحاوَلَ كَريمُ الدّينِ أَنْ يَفْتَحَ ثُغْرَةً في وَسَطِ دائِرَةِ الغيلانِ ، فَصَوَّبَ أَحَدَ سِهامِهِ إلى غولٍ قَريبٍ ، وَأَطْلَقَهُ ، وَلَكِنَّ السَّهْمَ تَكَسَّرَ فَوْقَ صَدْرِ الغولِ ، كَأَنَّما اصْطَدَمَ بِحَجَرٍ ، وَلَمْ يَبْدُ عَلى الغولِ أَيُّ

تَأْثِيرٍ . وَجَرَّبَ كَرِيمُ الدِّينِ سَهْمًا ثانِيًا وَثالِثًا دونَ فائِدَةٍ ، فَتَوَقَّفَ عَنْ إِطْلاقِ السِّهامِ ، وَهَمَسَ لِنَفْسِهِ : « إِنَّ جُلودَ هَذِهِ الغيلانِ صُلْبَةٌ ، وَلَنْ يُفيدَ قِتالي لَها بِشَيْءٍ .»

وَتَنَبَّهَ عِنْدَ وُقوفِهِ ساكِنًا بِجَوادِهِ إِلى أَنَّ الغيلانَ سَكَنَتْ مَكانَها أَيْضًا ، وَهِيَ تَهُزُّ رُءوسَها في كُلِّ اتِّجاهٍ ؛ مُحاوِلَةً التَّصَنُّتَ بِآذانِها الكَبيرَةِ ، فَأَدْرَكَ عَلى الفَوْرِ أَنَّها لَمْ تَرَهُ ، وَلَكِنَّها سَمِعَتْ صَوْتَهُ ، وَرَكْضَ جَوادِهِ ، وَأَنَّها تَسْتَعْمِلُ آذانَها الكَبيرَةَ في تَتَبُّعِهِ ، بَدَلاً مِنْ عُيونِها ، وَأَنَّ الطَّبيعَةَ الَّتي حَرَمَتْ تِلْكَ الغيلانَ مِنَ البَصَرِ - مَنَحَتْها آذانًا كَبيرَةً قادِرَةً عَلى الْتِقاطِ أَوْهَنِ الأَصْواتِ .

وَفي الحالِ وَضَعَ كَرِيمُ الدِّينِ خُطَّةً لِلنَّجاةِ مِنَ الغيلانِ ، فَتَرَجَّلَ عَنْ جَوادِهِ في سُكونٍ ، وَرَبَّتَ فَوْقَ مَعْرَفَتِهِ ، وَهَمَسَ لَهُ بِصَوْتٍ خَفيضٍ : « عَلَيْكَ بِالرَّكْضِ جِهَةَ الشَّرْقِ ، يا أَشْهَبُ ، مُثيرًا أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ الضَّجَّةِ ، وَسَأَلْحَقُ بِكَ دونَ أَنْ أُحْدِثَ صَوْتًا ، وَحَذارِ أَنْ يَمَسَّكَ هَؤُلاءِ المُتَوَحِّشونَ بِسوءٍ .»

حَمْحَمَ الجَوادُ الذَّكِيُّ ، وَقَدْ فَهِمَ ما قالَهُ صاحِبُهُ ، وَدَقَّ الأَرْضَ بِحَوافِرِهِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ جِهَةَ الشَّرْقِ مُثيرًا أَعْلى ضَجَّةٍ مُمْكِنَةٍ ، فَانْدَفَعَتِ الغيلانُ خَلْفَهُ لِتَسُدَّ أَمامَهُ الطَّريقَ ، وَلَكِنَّ الجَوادَ الذَّكِيَّ

أخَذَ يُحاوِرُها وَيَقْفِزُ في كُلِّ اتِّجاهٍ لِلْهَرَبِ مِنْهُمْ . وَبِقَفْزَةٍ بارِعَةٍ تَخَطَّى الجَوادُ الغيلانَ المُتَجَمِّعَةَ حَوْلَهُ ، وَانْطَلَقَ جِهَةَ الغَرْبِ .

وَانْتَهَزَ كَريمُ الدّينِ انْشِغالَ الغيلانِ بِمُطارَدَةِ جَوادِهِ ، واتِّساعَ الدّائِرَةِ حَوْلَهُ ، فَسارَ بِخِفَّةٍ وحَذَرٍ مُحاوِلاً الهَرَبَ ، وَلَكِنْ في اللَّحْظَةِ التّالِيَةِ ، انْهارَتِ الأَرْضُ تَحْتَ أَقْدامِ الجَوادِ الأَشْهَبِ ، فَسَقَطَ داخِلَ شَرَكٍ عَلى هَيْئَةِ حُفْرَةٍ عَميقَةٍ في باطِنِ الأَرْضِ ، كانَتْ تُخْفيها الأَغْصانُ اليابِسَةُ وَالأَعْشابُ ، فَانْدَفَعَتِ الغيلانُ إلى مَكانِ الحُفْرَةِ ، وَراحَتْ تَرْقُصُ وَتُهَلِّلُ حَوْلَها لِسُقوطِ الجَوادِ .

راقَبَ كَريمُ الدّينِ ما جَرى لِجَوادِهِ في غَضَبٍ ، وَأَدْرَكَ أَنَّ نَجاتَهُ صارَتْ صَعْبَةً ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَمامَهُ مِنْ طَريقٍ آخَرَ غَيْرُ مُواصَلَةِ الهَرَبِ ، قَبْلَ أَنْ يَكْتَشِفَ الغيلانُ أَنَّهُ لَمْ يَسْقُطْ داخِلَ الحُفْرَةِ مَعَ جَوادِهِ .

وَقَفَزَ أَحَدُ الغيلانِ داخِلَ الحُفْرَةِ ، وَقَبَضَ عَلى الجَوادِ ، وَحَمَلَهُ تَحْتَ إِبْطِهِ كَما لَوْ كانَ يَحْمِلُ عَنْزَةً صَغيرَةً ، ثُمَّ أَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ كَريمِ الدّينِ داخِلَ الحُفْرَةِ فَلَمْ يَعْثُرْ عَلَيْهِ ، وَاكْتَشَفَ هَرَبَهُ ، فَصاحَ في رِفاقِهِ صَيْحَةً رَهيبَةً ، قائِلاً : « لَقَدْ هَرَبَ الإِنْسِيُّ، وَسَقَطَ جَوادُهُ وَحْدَهُ في الشَّرَكِ .»

جَمَدَ كَرِيمُ الدّينِ مَكانَهُ حينَ اكْتَشَفَ الغيلانُ هَرَبَهُ ، وَشاهَدَهُمْ يَنْتَصِبونَ واقِفينَ في غَضَبٍ ، وَهُمْ يُديرونَ آذانَهُمْ في كُلِّ اتِّجاهٍ لِتَسَمُّعِ صَوْتِهِ ، وَفي الحالِ انْدَفَعَ بَعْضُ الغيلانِ إلى داخِلِ الجَبَلِ ، وَعادوا وَهُمْ يَحْمِلونَ شِباكًا كَبيرَةً ، أَخَذوا يُلْقونَ بِها في كُلِّ اتِّجاهٍ لاصْطِيادِ كَرِيمِ الدّينِ ، الَّذي شَعَرَ بِالمَأْزِقِ الَّذي يُواجِهُهُ، فَأَلْقى بِنَفْسِهِ عَلى الأَرْضِ مُتَدَحْرِجًا قَبْلَ أَنْ تَسْقُطَ إِحْدى الشِّباكِ الكَبيرَةِ عَلَيْهِ .

وَقَبْلَ أَنْ يَقِفَ عَلى قَدَمَيْهِ هَوَتْ شَبَكَةٌ أُخْرى فَوْقَهُ ، فَتَدَحْرَجَ مُبْتَعِدًا مَرَّةً أُخْرى ، وَلَكِنَّ صَوْتَ تَدَحْرُجِهِ جَذَبَ انْتِباهَ الغيلانِ ، فَأَخَذَتْ تُلْقي بِالشِّباكِ فَوْقَهُ بَعْدَ أَنْ رَصَدَتْ مَوْقِعَهُ ، فَراحَ كَرِيمُ الدّينِ يُمَزِّقُ بِسَيْفِهِ الشِّباكَ الَّتي تَكاثَرَتْ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّها كانَتْ مِنَ الكَثْرَةِ بِحَيْثُ حَجَبَتْ عَنْهُ ضِياءَ الشَّمْسِ ، وَتَثاقَلَتْ فَوْقَهُ حَتّى مَنَعَتْهُ مِنَ الحَرَكَةِ ، فَهَمَسَ لِنَفْسِهِ في يَأْسٍ : « إِنَّها النِّهايَةُ ! فَهَذِهِ الغيلانُ لَنْ تَأْخُذَها بي شَفَقَةٌ أَوْ رَحْمَةٌ .»

وَجَذَبَ الغيلانُ الشِّباكَ بِفَريسَتِها ، وَحَمَلَها أَحَدُهُمْ فَوْقَ ظَهْرِهِ ، وَحَمَلَ غولٌ آخَرُ جَوادَ كَرِيمِ الدّينِ ، وَساروا تِجاهَ فُتْحَةِ الكَهْفِ في سُرورٍ ، وَهُمْ يُمَنّونَ أَنْفُسَهُمْ بِوَجْبَةٍ شَهِيَّةٍ .

لَمْ يَدْرِ كَريمُ الدّينِ شَيْئًا مِمّا يَدورُ حَوْلَهُ ؛ فَقَدْ حَجَبَتِ الشِّباكُ الرُّؤْيَةَ أمامَهُ ، وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ بِحَرَكَةِ الغولِ الّذي يَحْمِلُهُ وَهُوَ يَرْتَقي بَعْضَ الحِجارَةِ ، فَأَدْرَكَ أَنَّهُ يَحْمِلُهُ إِلى داخِلِ الكَهْفِ .

وَأَخيرًا أَنْزَلَ الغولُ حِمْلَهُ عَلى الأَرْضِ ، وَأَزاحَ الشِّباكَ الثَّقيلَةَ عَنْ كَريمِ الدّينِ الّذي تَطَلَّعَ حَوْلَهُ في قَلَقٍ ، وَشاهَدَ أَمامَهُ عَدَدًا مِنَ الغيلانِ المُخيفَةِ الشَّكْلِ ، داخِلَ الكَهْفِ المُظْلِمِ . وَلَكِنَّ عَيْنَيْهِ اعْتادَتا الظَّلامَ بَعْدَ قَليلٍ ، فَشاهَدَ هَياكِلَ عَظْمِيَّةً لأُناسٍ وَحَيَواناتٍ ، مُعَلَّقَةً عَلى الحائِطِ ، بَعْدَ أَنْ أَوْقَعَها سوءُ الحَظِّ في أَيْدي الغيلانِ ، فَكانَتْ نِهايَتُها عَلى أَيْديهِمْ .

اِرْتَجَفَ كَريمُ الدّينِ عِنْدَما شاهَدَ تِلْكَ المَناظِرَ ، وَبَدَأَ اليَأْسُ يَتَسَرَّبُ إِلى نَفْسِهِ . وَبَعْدَ قَليلٍ لَمَحَ أَحَدَ الغيلانِ يُقْبِلُ مِنْ داخِلِ الكَهْفِ ، وَحينَ سَمِعَتْ بَقِيَّةُ الغيلانِ صَوْتَهُ انْحَنَتْ في تَوْقيرٍ بالِغٍ ، فَأَدْرَكَ كَريمُ الدّينِ أَنَّ هَذا الغولَ هُوَ الزَّعيمُ . وَقَدْ مَيَّزَهُ عَنِ الباقينَ عِقْدٌ مِنْ جَماجِمِ القُرودِ كانَ يَضَعُهُ حَوْلَ صَدْرِهِ ، وَمِئْزَرٌ مِنْ جِلْدِ الحِمارِ الوَحْشِيِّ المُخَطَّطِ كانَ يَسْتُرُ بِهِ عَوْرَتَهُ .

وَاقْتَرَبَ زَعيمُ الغيلانِ مِنْ كَريمِ الدّينِ ، وَقالَ لَهُ في صَوْتٍ مُخيفٍ : « ما الّذي أَتى بِكَ إِلى أَرْضِنا ، أَيُّها الإِنْسانُ ؟»

أجابَهُ كَريمُ الدّينِ : « إنّني لا أضْمِرُ لكُمْ شرًّا ، وَلا أرْغَبُ في الاعْتِداءِ عَلَيْكُمْ أوْ إيذائِكُمْ . وَكُلُّ ما أريدُهُ هُوَ عُبورُ أرْضِكُمْ لِلْوُصولِ إلى جَبَلِ الحِكْمَةِ ، وَأنْتُمُ الّذينَ بادَرْتُمْ بِالهُجومِ عَلَيَّ .»

أطْلَقَ زَعيمُ الغيلانِ ضِحْكَةً عالِيَةً ارْتَجَّ لَها الكَهْفُ ، فَسَدَّ كَريمُ الدّينِ أذُنَيْهِ بِيَدَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الصَّوْتِ ، وَتَوَقَّفَ زَعيمُ الغيلانِ عَنِ الضَّحِكِ ، وَقالَ لِكَريمِ الدّينِ :

« كَثيرونَ غَيْرُكَ أرادوا الوُصولَ إلى جَبَلِ الحِكْمَةِ وَلَمْ يُفْلِحوا .»

أجابَهُ كَريمُ الدّينِ في شَجاعَةٍ : « وَلكِنَّ هَذا لا يَمْنَعُ مِنَ المُحاوَلَةِ ، وَهَذا لا يُضيرُكُمْ في شَيْءٍ .»

قالَ زَعيمُ الغيلانِ : « وَلكِنَّكَ بِسَبَبِ ذَلِكَ تَعَدَّيْتَ عَلى أرْضِنا دونَ إذْنٍ مِنّا .»

قالَ كَريمُ الدّينِ : « إنّني آسِفٌ لِذَلِكَ ، وَمُسْتَعِدٌّ لِتَعْويضِكُمْ إنْ كانَ هُناكَ ضَرَرٌ . وَفي حَوْزَتي خَمْسُمِئَةِ دينارٍ مِنَ الذَّهَبِ ، هِيَ ما تَبَقّى مَعي ، وَأنا مُسْتَعِدٌّ لإعْطائِها لَكُمْ ، إذا كانَ في ذَلِكَ إصْلاحٌ لِهَذا الخَطَأ .»

بانَ الغَضَبُ في عَيْنَيْ زَعيمِ الغيلانِ ، وَقالَ : « وَبِماذا سَتُفيدُ

نُقودُكَ أيُّها الإنْسانُ ؟ لا بُدَّ أنَّكَ شاهَدْتَ أرْضَنا وَرأيْتَ أنَّها قاحِلَةٌ، لا زَرْعَ فيها وَلا شَيْءَ يُمْكِنُ أنْ يُباعَ أوْ يُشْتَرى ؛ فَالذَّهَبُ أوِ المالُ لَدَيْنا يُساوي الحِجارَةَ وَالرِّمالَ – لا قيمَةَ لَهُ .»

سَأَلَهُ كَريمُ الدّينِ دَهِشًا : « وَلِماذا لا تَزْرَعونَ أرْضَكُمْ ، وَتُفْلِحونَها ، وَتَبْنونَ مَساكِنَ لَكُمْ ؟»

أجابَهُ زَعيمُ الغيلانِ بِحِدَّةٍ : « كَيْفَ ذَلِكَ وَنَحْنُ عِمْيانٌ لا نُبْصِرُ ؟ كَما أنَّنا نَجْهَلُ أيَّ شَيْءٍ عَنِ الزِّراعَةِ أوِ البِناءِ أوِ الصِّناعَةِ .»

أخْفى كَريمُ الدّينِ دَهْشَتَهُ ، وَقالَ : « وَلَكِنْ مِنْ أيْنَ تَحْصُلونَ عَلى طَعامِكُمْ ؟»

أطْلَقَ زَعيمُ الغيلانِ ضِحْكَةً عالِيَةً ، وَقالَ : « إنَّ طَعامَنا الوَحيدَ نَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ أولَئِكَ الحَمْقى وَالمُغَفَّلينَ ، الَّذينَ يُريدونَ عُبورَ أرْضِنا ، لِلْوُصولِ إلى جَبَلِ الحِكْمَةِ ، فَيَكونُ مَصيرُهُمْ في بُطونِنا . لَيْتَهُمْ كانوا يُدْرِكونَ أنَّهُ لَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ مُحاوَلَةُ بُلوغِ جَبَلِ الحِكْمَةِ !»

وَأطْلَقَ زَعيمُ الغيلانِ ضِحْكَةً أعْلى ، فَتَبِعَهُ أفْرادُ عَشيرَتِهِ ، وَارْتَجَّ الكَهْفُ بِصَوْتِ الضَّحِكاتِ المُخيفَةِ الَّتي زَلْزَلَتْهُ .

اِرْتَعَدَ كَريمُ الدّينِ لِما قالَهُ زَعيمُ الغيلانِ ، وَأدْرَكَ المَصيرَ الَّذي

يَنْتَظِرُهُ ، وَتَعالى صُراخُ الغيلانِ في صَوْتٍ رَهيبٍ قائِلينَ : « لِنَشْوِ هَذا الإِنْسانَ وَجَوادَهُ ؛ لِنَأْكُلَهُما وَنَتَمَتَّعَ بِمَذاقِهِما ؛ فَمُنْذُ أَيّامٍ عَديدَةٍ لَمْ نَذُقْ شَيْئًا ، وَنَكادُ نَموتُ جوعًا ! »

صاحَ زَعيمُ الغيلانِ في أَتْباعِهِ : « أَشْعِلوا نارًا مُتَأَجِّجَةً لِشَيِّ هَذا الإِنْسانِ وَجَوادِهِ ؛ فَإِنَّني أَتَحَرَّقُ شَوْقًا لِتَذَوُّقِ لَحْمِهِما الشَّهِيِّ . »

الفصل الثامن

اِتِّفاقٌ مَعَ الغيلانِ

تَأَكَّدَ كَرِيمُ الدِّينِ أَنَّ نِهايَتَهُ قَدْ حَلَّتْ ، وَأَنَّ شَيْئًا لَنْ يُنْقِذَهُ مِنْ مَصيرِهِ المَحْتومِ ، وَلَكِنْ فَجْأَةً بَرَقَ خاطِرٌ في ذِهْنِهِ ، فَصاحَ في زَعيمِ الغيلانِ : « اِنْتَظِرْ ، يا سَيِّدي ، وَاطْلُبْ مِنْ أَتْباعِكَ التَّمَهُّلَ ؛ فَإِنَّ لَدَيَّ عَرْضًا أَفْضَلَ لِإِطْعامِ شَعْبِكَ ، بَدَلاً مِنِ التِهامي وَجَوادي ؛ لأَنَّنا لَنْ نَسُدَّ رَمَقَكُمْ وَلَوْ كُنّا بِعَشَرَةِ أَمْثالِ حَجْمِنا .»

سَأَلَهُ زَعيمُ الغيلانِ في دَهْشَةٍ : « أَيُّ عَرْضٍ هَذا الَّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ ؟»

أَجابَهُ كَريمُ الدِّينِ : « إِنَّكُمْ بَعْدَ أَنْ تَأْكُلوني وَجَوادي سَتَجوعونَ بَعْدَها رُبَّما لأَسابيعَ أَوْ شُهورٍ طَويلَةٍ ، قَبْلَ أَنْ تَقْتَنِصوا إِنْسانًا آخَرَ أَوْ حَيَوانًا يَسوقُهُ سوءُ الحَظِّ إِلى أَرْضِكُمْ ، وَهَكَذا سَتَحْيَوْنَ في ظِلِّ جوعٍ مُسْتَمِرٍّ . وَلَكِنّي أَضْمَنُ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلوا ثَلاثَ وَجَباتٍ كُلَّ

يَوْمٍ ، وَتَشْبَعوا في كُلِّ مَرَّةٍ ، وَتَكونَ مَوائِدُكُمْ عامِرَةً بِأَصْنافٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الطَّعامِ . إنَّ كُلَّ ما أَرْغَبُ فيهِ هُوَ الحُصولُ عَلى مُهْلَةٍ لِعامٍ واحِدٍ فَقَطْ ؛ لِتَنْفيذِ وَعْدي هَذا .»

سَأَلَهُ زَعيمُ الغيلانِ في دَهْشَةٍ : « كَيْفَ ذَلِكَ ؟»

أَجابَهُ كَريمُ الدّينِ : « سَوْفَ أَزْرَعُ أَرْضَكُمْ ، فَهِيَ خِصْبَةٌ وَجاهِزَةٌ لِلزِّراعَةِ ، وَيَشُقُّها نَهْرٌ صافٍ سَيَمُدُّها بِالماءِ اللّازِمِ . وَبَعْدَ نُضْجِ مَحْصولِها مِنَ الشَّعيرِ وَالذُّرَةِ وَالفولِ ، وَكُلِّ أَصْنافِ البُقولِ وَالخَضْراواتِ ، سَيَفيضُ الطَّعامُ عَنْ حاجَتِكُمْ ، وَسَتَأْكُلونَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْهُ حَتّى تَشْبَعوا . وَلَنْ تُضْطَرّوا بَعْدَها لانْتِظارِ أَيِّ عابِرِ سَبيلٍ لالْتِهامِهِ وَسَدِّ جوعِكُمْ ، بَلْ يُمْكِنُكُمْ أَيْضاً تَرْبِيَةُ الأَبْقارِ وَالخِرافِ وَالدَّجاجِ ، لِتُوَفِّرَ لَكُمْ ما تَحْتاجونَهُ مِنَ اللُّحومِ . وَسَأَصْنَعُ لَكُمْ أَيْضاً مَلابِسَ مِنَ القُطْنِ وَالكَتّانِ الَّذي سَأَزْرَعُهُ ، ثُمَّ أَنْسِجُهُ بَعْدَ ذَلِكَ .»

تَحَيَّرَ زَعيمُ الغيلانِ مِنْ ذَلِكَ الاقْتِراحِ العَجيبِ ، الَّذي لَمْ يَسْمَعْ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ . وَلَكِنَّ بَعْضَ الغيلانِ صاحَتْ : « إنَّنا جَوْعى الآنَ . نُريدُ أَنْ نَلْتَهِمَ هَذا الإِنْسانَ وَجَوادَهُ .»

قالَ كَريمُ الدّينِ : « إنَّني لَنْ أَزْرَعَ أَرْضَكُمْ فَقَطْ ، بَلْ سَأُشَيِّدُ لَكُمْ أَيْضاً مَساكِنَ مِنْ حِجارَةِ الجَبَلِ الَّذي تَعيشونَ فيهِ ، وَمِنْ

أشْجارِ الغابَةِ القَرِيبَةِ ، وَسَأصْنَعُ لَكُمْ أوانِيَ لِلطَّهْيِ ، وَأَكْوابًا وَمَقاعِدَ وَمَناضِدَ وَكُلَّ ما تَتَمَنَّوْنَ . وَسَأُعَلِّمُكُمْ كَيْفَ تَصْنَعونَ تِلْكَ الأَشْياءَ، فَيُصيبُكُمُ التَّمَدُّنُ ، وَتَتَحَسَّنُ مَعيشَتُكُمْ ، وَلا تُضْطَرّونَ لِسُكْنى الكُهوفِ وَالغاباتِ ، وَالنَّوْمِ عَلى الأَرْضِ وَالصُّخورِ ، وَالسَّيْرِ عَرايا في البَرْدِ .»

سادَ الصَّمْتُ بَعْدَ كَلِماتِ كَريمِ الدّينِ ، وَأَخَذَتِ الغيلانُ تَهُزُّ رُءوسَها في دَهْشَةٍ ، وَقَدْ أَعْجَبَتْها كَلِماتُ كَريمِ الدّينِ .

قالَ زَعيمُ الغيلانِ في صَوْتٍ لاهِثٍ : « هَلْ تَقولُ الصِّدْقَ أَيُّها الإِنْسانُ أَمْ تُحاوِلُ خِداعَنا ؟ وَهَلْ أَنْتَ قادِرٌ حَقًّا عَلى فِعْلِ تِلْكَ الأَشْياءِ ؟»

أجابَهُ كَريمُ الدّينِ : « إِنَّني لا أَخْدَعُكُمْ ؛ فَسَوْفَ أَقومُ بِكُلِّ هَذِهِ الأَشْياءِ ، وَسَأُعَلِّمُها لَكُمْ لِكَيْ تَتَمَكَّنوا مِنْ صُنْعِها فَلا تُضْطَرّوا لالْتِهامِ إِنْسانٍ يَعْبُرُ أَرْضَكُمْ دونَ ذَنْبٍ . وَلَيْسَ لي غَيْرُ شَرْطٍ وَحيدٍ ، وَهُوَ أَنْ تَدَعوني أَعْبُرُ أَرْضَكُمْ في سَلامٍ بَعْدَ أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْ هَذِهِ المُهِمَّةِ . أَمّا إِذا فَشِلْتُ فيها فَيَحِقُّ لَكُمُ الْتِهامي وَجَوادي .»

تَصاعَدَ صِياحُ الغيلانِ بِالمُوافَقَةِ ، وَقالَ أَحَدُها : « كانَ أَجْدادُنا يَصْنَعونَ هَذِهِ الأَشْياءَ ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ أَصابَهُمُ العَدى تَوَقَّفوا عَنِ

الزِّراعَةِ وَالصِّناعَةِ ، وَصارَ عَمَلُهُمُ الوَحيدُ اقْتِناصَ ما يَمُرُّ بِأَرْضِهِمْ . وَلَعَلَّ هَذا الشّابَّ يُعيدُ لَنا ما ضاعَ مِنّا فَلا نَعودَ إِلى اقْتِناصِ الإِنْسانِ ثانِيَةً .»

قال غولٌ آخَرُ : « وَلَكِنّي أَخْشى أَنْ يَهْرُبَ هَذا الإِنْسانُ في غَفْلَةٍ مِنّا ، إِذا مَنَحْناهُ الأَمانَ ، وَلا يُحَقِّقَ لَنا ما وَعَدَنا بِهِ . وَرُبَّما يَكونُ كُلُّ ما قالَهُ مُجَرَّدَ خُدْعَةٍ ، تَحَيُّنًا لِفُرْصَةِ هُروبِهِ مِنْ أَيْدينا .»

قالَ كَريمُ الدّينِ : « لَنْ تُصَدِّقوني إِذا وَعَدْتُكُمْ بِأَنَّني لَنْ أَهْرُبَ ، وَأَنا مُسْتَعِدٌّ لأَنْ أُقَيَّدَ مِنْ رَقَبَتي بِطَوْقٍ حَديدِيٍّ لَهُ مِفْتاحٌ وَحيدٌ يَسْتَحيلُ تَحْطيمُهُ ، وَيَحْتَفِظُ زَعيمُكُمْ بِهِ ، يَتَدَلّى مِنْهُ جَرَسٌ كُلَّما تَحَرَّكْتُ صَلْصَلَ . وَما دُمْتُمْ تَسْمَعونَ صَلْصَلَةَ هَذا الجَرَسِ سَتَتَأَكَّدونَ مِنْ وُجودي وَعَمَلي بِجِوارِكُمْ ، وَمِنْ أَنَّني لَمْ أَهْرُبْ . وَفي اللَّيْلِ احْبِسوني داخِلَ هَذا الكَهْفِ لِتَضْمَنوا عَدَمَ هَرَبي أَثْناءَ نَوْمِكُمْ . وَبَعْدَ تَحْقيقِ ما وَعَدْتُكُمْ بِهِ ، يُمْكِنُ لِزَعيمِكُمْ فَتْحُ قُفْلِ الطَّوْقِ ، وَتَخْليصي مِنْهُ .»

قالَ زَعيمُ الغيلانِ في سُرورٍ : « هَذِهِ فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ ، وَسَنَبْدَأُ بِتَنْفيذِها في الحالِ . لِحُسْنِ الحَظِّ أَنَّني أَمْتَلِكُ مِثْلَ هَذا الطَّوْقِ وَالجَرَسِ أَيْضًا ، فَقَدْ كانَ أَجْدادُنا يَسْتَعْمِلونَهُ مَعَ ماشِيَتِهِمْ لِيَضْمَنوا عَدَمَ

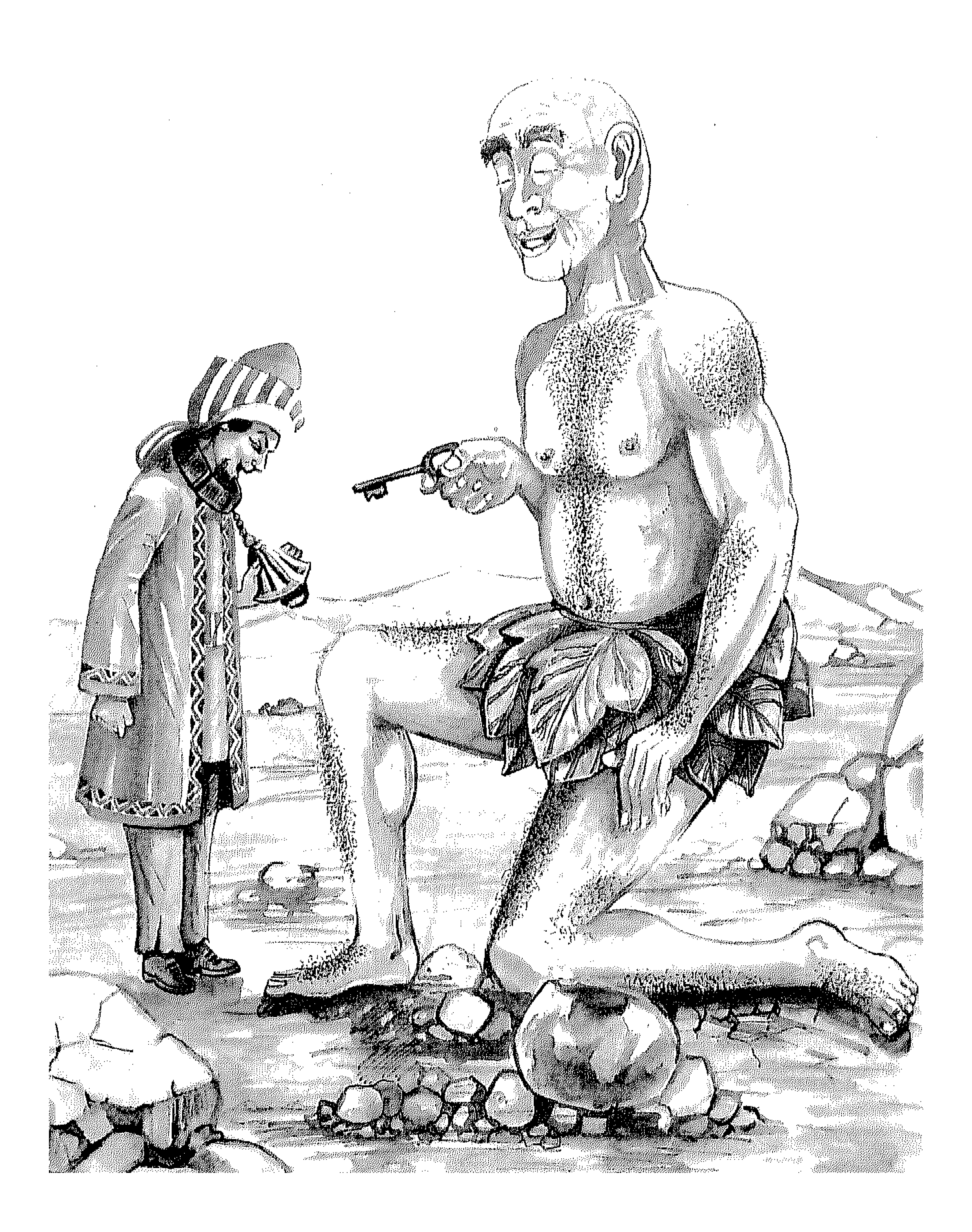
هَرَبِها مِنْهُمْ .»

وَغابَ زَعيمُ الغيلانِ في الدّاخِلِ ، وَعادَ بَعْدَ قَليلٍ حامِلاً الطَّوْقَ ذا الجَرَسِ ، فَعَلَّقَهُ في رَقَبَةِ كَريمِ الدّينِ ، وَأَغْلَقَ قُفْلَهُ ، وَاحْتَفَظَ بِمِفْتاحِهِ ، فَصارَ الجَرَسُ يُصَلْصِلُ مَعَ أَيَّةِ حَرَكَةٍ مِنْ كَريمِ الدّينِ ، وَاسْتَحالَ عَلَيْهِ الهَرَبُ .

قالَ كَرِيمُ الدِّينِ لِزَعيمِ الغيلانِ : « إِنَّني أَطْلُبُ مُهْلَةَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ لِكَيْ أَبْدَأَ فيما وَعَدْتُ بِهِ ، بِشَرْطِ أَنْ تَمْنَحوني الكُتُبَ المُعَلَّقَةَ في صُنْدوقٍ فَوْقَ سَرْجِ جَوادي .»

أَحْضَرَتْ لَهُ الغيلانُ الكُتُبَ ، وَحَبَسَتْهُ يَوْمَيْنِ داخِلَ الكَهْفِ ، لا يَقْتاتُ خِلالَهُما غَيْرَ أَوْراقِ الأَشْجارِ الَّتي وَجَدَها في أَرْضِيَّتِهِ . وَخِلالَ اليَوْمَيْنِ أَتَمَّ كَريمُ الدّينِ قِراءَةَ كُلِّ الكُتُبِ الَّتي أَهْداها لَهُ الحاكِمُ عَنِ الزِّراعَةِ وَطُرُقِها ، وَبَعْدَ أَنِ اسْتَوْعَبَها جَيِّداً أَغْلَقَها وَهَمَسَ لِنَفْسِهِ : « لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الكُتُبَ سَتَحْمِلُ لي فُرْصَةَ النَّجاةِ مِنَ المَوْتِ ، فَشُكْرًا لَكَ يا أَبي لأَنَّكَ مَنَحْتَها لِصَديقِكَ الحاكِمِ ، وَشُكْرًا لَهُ لأَنَّهُ أَصَرَّ عَلى أَنْ أَحْمِلَها مَعي . وَلَكِنْ يَجِبُ أَوَّلاً الحُصولُ عَلى بُذورِ الأَصْنافِ الَّتي أَنْوي زِراعَتَها .»

وَعَرَضَ كَريمُ الدّينِ الأَمْرَ عَلى زَعيمِ الغيلانِ ، فَفَكَّرَ الزَّعيمُ ثُمَّ



قالَ : « وَلكِنْ مِنْ أَيْنَ سَنَحْصُلُ عَلى تِلْكَ البُذورِ ، وَنَحْنُ لا نَمْلِكُ مِنْها شَيْئًا مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ ؟»

أجابَهُ كَريمُ الدِّينِ : « إِنَّني أَسْتَطيعُ شِراءَ كَمِّيَّةٍ كَبيرَةٍ مِنْ تِلْكَ البُذورِ بِجُزْءٍ مِنَ المالِ الَّذي أَمْلِكُهُ ، وَزِراعَتَها ، وَسَأَجْلُبُ مَعَها أَيْضاً بَعْضَ الأَبْقارِ وَالخِرافِ وَالدَّجاجِ لِتَرْبِيَتِها ، فَتَتَكاثَرُ وَتَنْعَمونَ بِلَحْمِها وَلَبَنِها . وَلكِنَّ هَذا يَتَطَلَّبُ السَّفَرَ إِلى أَقْرَبِ مَدينَةٍ ؛ لابْتِياعِ تِلْكَ الأَشْياءِ مِنْها . وَإِذا كُنْتُمْ تَخْشَوْنَ فِراري فَيُمْكِنُ أَنْ يَصْطَحِبَني أَحَدُ الغيلانِ في رِحْلَتي .»

وافَقَ زَعيمُ الغيلانِ ، وَسافَرَ كَريمُ الدِّينِ بِرُفْقَةِ حارِسٍ ، وَعادا بَعْدَ أُسْبوعٍ ، وَهُما يَحْمِلانِ فَوْقَ عَرَبَةٍ تَجُرُّها الثِّيرانُ وَالأَبْقارُ ، كُلَّ أَصْنافِ البُذورِ الصّالِحَةِ لِلزِّراعَةِ ، وَبَعْضَ أَقْفاصِ الدَّجاجِ .

وَفي الحالِ بَدَأَ كَريمُ الدِّينِ عَمَلَهُ الشّاقَّ ؛ فَقَسَّمَ الغيلانَ إِلى مَجْموعاتٍ ، أَخَذَتْ مَجْموعَةٌ تَحْرُثُ الأَرْضَ ، وَمَجموعَةٌ ثانِيَةٌ تُلْقي البُذورَ في الأَرْضِ المَحْروثَةِ ، وَمَجْموعَةٌ ثالِثَةٌ تَقومُ بِرَيِّها ، تَحْتَ إِشْرافِ كَريمِ الدِّينِ .

وَأَمَرَ كَريمٌ بَعْضَ الغيلانِ بِتَقْطيعِ بَعْضِ أَشْجارِ الغابَةِ ، فَمَكَّنَتْها قُوَّتُها الهائِلَةُ مِنْ ذَلِكَ ، وَشَرَعَتْ في بِناءِ مَساكِنَ لَها تَحْتَ رِعايَةِ

كَريمِ الدّينِ وَإِشْرافِهِ ، وَهُوَ يَسْتَمِدُّ مَعْرِفَتَهُ مِنَ الكُتُبِ الَّتي يَحْمِلُها مَعَهُ . وَعِنْدَما تَمَّ بِناءُ عَشَراتِ المَساكِنِ ، كانَتِ الأَرْضُ المَزْروعَةُ قَدْ أَنْبَتَتْ سيقانًا خَضْراءَ ، فَعاوَدَتِ الغيلانُ رَيَّها تَحْتَ إِشْرافِ كَريمِ الدّينِ ، الَّذي أَخَذَ يُوَجِّهُ بَقِيَّتَها لِطُرُقِ صِناعَةِ الفَخّارِ وَالزُّجاجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَكانَتِ الغيلانُ تَحْصَلُ عَلى ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التُّرْبَةِ الغَنِيَّةِ في أَرْضِها الحافِلَةِ بِكُلِّ المَعادِنِ ، تُساعِدُها النّارُ الَّتي أَشْعَلَها كَريمُ الدّينِ لِتُساهِمَ في صِناعَةِ الزُّجاجِ وَصَهْرِ المَعادِنِ .

وَعِنْدَما أَتَمَّ كَريمُ الدّينِ صُنْعَ أَثاثِ المَنازِلِ ، كانَتِ الأَرْضُ المَزْروعَةُ قَدْ أَيْنَعَتْ مَحاصيلُها ، وَحانَ أَوانُ قِطافِها ، فَتَكَدَّسَتِ المَحاصيلُ داخِلَ المَخازِنِ الواسِعَةِ ، فابْتَهَجَتِ الغيلانُ ، وَأَخَذَتْ تَأْكُلُ حَتّى الشِّبَعِ – لأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِها – مِنَ الخَضْراواتِ وَالبُقولِ وَالأَبْقارِ المَذْبوحَةِ . وَنامَتْ لَيْلَتَها الأولى داخِلَ المَساكِنِ الفاخِرَةِ الوَثيرَةِ ، وَهِيَ تَرْتَدي أَبْهى الحُلَلِ وَالمَلابِسِ ، الَّتي حَصَلَ كَريمُ الدّينِ عَلى كَتّانِها وَقُطْنِها مِنَ المَحاصيلِ الَّتي زَرَعَها وَحَصَدَها ، وَاسْتَغْرَقَ نَسْجُها عِدَّةَ شُهورٍ بَعْدَ أَنْ عَلَّمَ الغيلانَ كَيْفَ تَفْعَلُ ذَلِكَ عَلى الأَنْوالِ .

وَذاتَ يَوْمٍ قالَ زَعيمُ الغيلانِ لِكَريمِ الدّينِ : « إِنَّني لا أَدْري كَيْفَ أَشْكُرُكَ أَيُّها الشّابُّ ؛ فَقَدْ عَلَّمْتَنا أَشْياءَ كَثيرَةً نافِعَةً ، وَكُنْتَ

خَيْرَ عَوْنٍ لَنا . وَالحَمْدُ للهِ أَنَّنا طاوَعْناكَ وَأَبْقَيْنا عَلى حَياتِكَ . وَأَعِدُكَ بَعْدَ الآنَ بِأَنَّ أَيَّ إِنْسانٍ يَعْبُرُ أَرْضَنا لَنْ يُصيبَهُ الضَّرَرُ أَبَداً ، بِفَضْلِكَ أَيُّها الشّابُّ الكَريمُ .»

وَ وَضَعَ زَعيمُ الغيلانِ مِفْتاحَهُ في قُفْلِ الطَّوْقِ ، فَتَحَرَّرَ مِنْهُ كَريمُ الدّينِ ، وَقالَ لَهُ زَعيمُ الغيلانِ : « أَنْتَ حُرٌّ الآنَ ، وَتَسْتَطيعُ أَنْ تَذْهَبَ حَيْثُ شِئْتَ .»

شَكَرَ كَريمُ الدّينِ زَعيمَ الغيلانِ ، وَقالَ لَهُ : « إِنَّني بِدَوْري أُقَدِّمُ لَكُمْ شُكْري أَيُّها الزَّعيمُ ، فَفي أَحْيانٍ كَثيرَةٍ يَدْفَعُ الخَطَرُ الإِنْسانَ إِلى تَعَلُّمِ أَشْياءَ كَثيرَةٍ . وَلَوْلاكُمْ ما اهْتَمَمْتُ بِالزِّراعَةِ أَوْ طُرُقِ الصِّناعَةِ ، وَلَما مارَسْتُها في حَياتي .»

وَتَجَمَّعَتِ الغيلانُ كُلُّها في وَداعٍ حارٍّ لِكَريمِ الدّينِ ، فَامْتَطى جَوادَهُ ثُمَّ انْطَلَقَ مُواصِلاً رِحْلَتَهُ إِلى جَبَلِ الحِكْمَةِ ، وَهُوَ يَحْمَدُ اللهَ عَلى كُلِّ ما جَرى لَهُ . وَاسْتَعَدَّ لاجْتِيازِ العَقَبَةِ الأَخيرَةِ لَهُ ، وَهِيَ عُبورُ بِلادِ الأَقْزامِ .

الفصل التاسع

أرْضُ الضَّبابِ وَالأقزامِ

اِسْتَغْرَقَتْ رِحْلَةُ كَريمِ الدّينِ إلى بِلادِ الأَقْزامِ شَهْرَيْنِ كامِلَيْنِ ، قَطَعَ خِلالَهُما أراضِيَ لَمْ يَسْمَعْ عَنْها مِنْ قَبْلُ ، وَصادَفَ شُعوباً لَمْ يَكُنْ يَدْري بِوُجودِها ، وَتَعَلَّمَ وَاكْتَسَبَ خِبْراتٍ جَديدَةً كُلَّ يَوْمٍ . وَأخيراً لاحَتْ لَهُ أَرْضُ الأَقْزامِ مِنْ بَعيدٍ .

وَكانَتْ ثَمَّةَ ظاهِرَةٌ عَجيبَةٌ تُحيطُ بِتِلْكَ الأَرْضِ ، فَالضَّبابُ الكَثيفُ يُغَطّي كُلَّ شِبْرٍ فَوْقَها ، حَتّى لا تَكادُ تَبينُ تَفاصيلُها ، وَلا يَكادُ المَرْءُ يَسْتَطيعُ رُؤْيَةَ ما تَحْتَ قَدَمَيْهِ مِنْ كَثافَةِ الضَّبابِ .

تَوَقَّفَ كَريمُ الدّينِ بِجَوادِهِ دَهِشاً ، وَقالَ لِنَفْسِهِ : « كَيْفَ سَأَتَمَكَّنُ مِنْ عُبورِ هَذِهِ الأَرْضِ ، وَهِيَ مُحاطَةٌ بِهَذا الضَّبابِ ؟ وَكَيْفَ سَأَهْتَدي إلى طَريقي وَسْطَها ، وَالسَّماءُ تَحْجُبُها هَذِهِ الغُيومُ؟ وَلَكِنْ لَيْسَ هُناكَ مَفَرٌّ مِنِ اقْتِحامِها مَهْما كانَتِ المَخاطِرُ .»

وَلَكَزَ جَوادَهُ بِقُوَّةٍ ، فَانْطَلَقَ كَأَنَّهُ سَهْمٌ نَحْوَ الضَّبابِ وَاخْتَرَقَهُ ، وَأَخَذَ يَعْدو بِصاحِبِهِ في قَلْبِ الضَّبابِ ، وَهُوَ لا يَكادُ يَرى مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ ، ثُمَّ تَعَثَّرَ في حَجَرٍ كَبيرٍ اصْطَدَمَ بِقَوائِمِهِ ، فَسَقَطَ هُوَ وَراكِبُهُ سَقْطَةً مُؤْلِمَةً . وَتَحامَلَ كَريمُ الدّينِ وَنَهَضَ ، وَحاوَلَ اخْتِراقَ حُجُبِ الضَّبابِ دونَ فائِدَةٍ . وَفَجْأَةً شاهَدَ عَلى البُعْدِ ضَوْءاً واهِناً ، فَاقْتَرَبَ مِنْ مَصْدَرِهِ حَتّى لَمْ يَعُدْ يَفْصِلُهُ عَنْهُ غَيْرُ خُطْوَةٍ واحِدَةٍ ، وَشاهَدَ قَزَماً ، لا يَزيدُ طولُهُ عَلى قامَةِ طِفْلٍ ، مُمْسِكاً بِمِصْباحٍ زَيْتِيٍّ ، يُنَقِّبُ هُنا وَهُناكَ وَسْطَ الضَّبابِ ، كَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ مُعَيَّنٍ .

اِنْدَفَعَ كَريمُ الدّينِ نَحْوَ القَزَمِ ، وَصاحَ بِهِ : « أَنْتَ أَيُّها القَزَمُ ، هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَدُلَّني عَلى وَسيلَةٍ لِلْخُروجِ مِنْ هَذِهِ المَتاهَةِ الَّتي يُغَلِّفُها الضَّبابُ ؟»

أَجابَهُ القَزَمُ : « إِنَّني مَشْغولٌ ، وَلا أَسْتَطيعُ مُساعَدَتَكَ ؛ فَثَمَّ عَمَلٌ آخَرُ أُؤَدّيهِ ؛ إِنَّني أُفَتِّشُ عَنِ الحِكْمَةِ بِهَذا المِصْباحِ الزَّيْتِيِّ . إِنَّها هُناكَ ، وَمَنْ يُدَقِّقْ يَعْثُرْ عَلَيْها .»

هَمَسَ كَريمُ الدّينِ لِنَفْسِهِ : « إِنَّ هَذا القَزَمَ يَبْدو لي مَجْنوناً ! هَلْ يُمْكِنُ لِلإِنْسانِ أَنْ يَعْثُرَ عَلى الحِكْمَةِ ، إِذا فَتَّشَ عَنْها بِمِصْباحٍ ؟»

اِلْتَفَتَ إِلى القَزَمِ قائِلاً : « إِنَّكَ تَبْذُلُ مَجْهوداً ضائِعاً وَلَنْ تَعْثُرَ

عَلى ما تَبْحَثُ عَنْهُ أَبدًا . وَالأفْضَلُ لَكَ أنْ تَبيعَني هَذا المِصْباحَ ؛ لِيُرْشِدَني إلى طَريقِ الخُروجِ مِنْ هَذا الضَّبابِ . وَقَدْ تَبَقَّتْ مَعي مِئَةُ دينارٍ ذَهَبِيٍّ ، فَما رَأْيُكَ لَوْ مَنَحْتُكَ نِصْفَها ، مُقابِلَ هَذا المِصْباحِ الَّذي لا يُساوي ديناراً واحِداً مِنَ الفِضَّةِ ؟»

أجابَهُ القَزَمُ : « إنَّني لا أبيعُ مِصْباحي بِكُلِّ مالِ العالَمِ !»

هَمَسَ كَريمُ الدّينِ لِنَفْسِهِ : « إنَّ هَذا القَزَمَ يَبْدو طَمّاعاً مُحْتالاً ، وَلَكِنْ لَيْسَ أمامي غَيْرُ مُضاعَفَةِ الثَّمَنِ لَهُ .»

وَقالَ لِلْقَزَمِ : « ما رَأْيُكَ لَوْ مَنَحْتُكَ كُلَّ ما أَمْلِكُ مِنْ ذَهَبٍ ثَمَناً لِهَذا المِصْباحِ ؟»

كَرَّرَ القَزَمُ إجابَتَهُ في إصْرارٍ : « وَلا بِكُلِّ مالِ العالَمِ أبيعُ هَذا المِصْباحَ !»

غَضِبَ كَريمُ الدّينِ ، وَصاحَ في القَزَمِ : « حَسَنٌ أيُّها القَزَمُ الخَرِفُ ، فَسَوْفَ أحْصُلُ مَجّاناً عَلى ما رَفَضْتَ أنْ تَبيعَني إيّاهُ بِمِئَةِ دينارٍ ذَهَبِيٍّ ، وَلَنْ تَسْتَطيعَ مَنْعي أبَداً .»

وَانْقَضَّ كَريمُ الدّينِ عَلى القَزَمِ ، فَانْتَزَعَ مِنْهُ مِصْباحَهُ الزَّيْتِيَّ ، وَقَفَزَ إلى جَوادِهِ وَلَكَزَهُ بِقُوَّةٍ ، فَانْطَلَقَ الجَوادُ يَخْتَرِقُ حُجُبَ الضَّبابِ

الكَثيفِ ، وَمِنَ الخَلْفِ عَلا صِياحُ القَزَمِ صاحِبِ المِصْباحِ : « عُدْ أَيُّها الشّابُّ وَإِلّا نَدِمْتَ أَشَدَّ النَّدَمِ !»

أجابَهُ كَرِيمُ الدّينِ ساخِرًا : « لَنْ يَنْدَمَ أَحَدٌ سِواكَ أَيُّها القَزَمُ الأَحْمَقُ ؛ بِسَبَبِ الدَّنانيرِ الذَّهَبِيَّةِ الَّتي خَسِرْتَها .»

وَانْطَلَقَ بِجَوادِهِ كاشِفًا الطَّريقَ لِنَفْسِهِ بِمِصْباحِهِ الزَّيْتِيِّ ، وَلَكِنَّ المِصْباحَ لَمْ يَكُنْ يُبَيِّنُ مَعالِمَ الطَّريقِ لأَكْثَرَ مِنْ مَرْمى حَجَرٍ . وَأَخَذَ الضَّبابُ يَتَكاثَفُ شَيْئًا فَشَيْئًا فَتَضاءَلَتِ المَسافَةُ الَّتي يُنيرُها ، وَكَريمُ الدّينِ يَدورُ بِجَوادِهِ في حَلَقاتٍ لا نِهايَةَ لَها ، دونَ أَنْ يَعْثُرَ عَلى طَريقِ النَّجاةِ . وَتَوَقَّفَ الجَوادُ في النِّهايَةِ لاهِثًا ، وَكانَ التَّعَبُ وَالإِنْهاكُ قَدْ حَلّا بِكَريمِ الدّينِ ، فَقالَ لِنَفْسِهِ في غَضَبٍ : « ما العَمَلُ الآنَ وَلا سَبيلَ لي لِمُغادَرَةِ هَذِهِ المَتاهَةِ الضَّبابِيَّةِ ؟»

وَلاحَظَ أَنَّ نورَ المِصْباحِ قَدْ أَخَذَ يخبو شَيْئًا فَشَيْئًا ، فَصاحَ ساخِطًا : « لَمْ يَكُنْ يَنْقُصُني غَيْرُ ذَلِكَ ! لَقَدْ فَرَغَ زَيْتُ المِصْباحِ ، وَلَمْ تَعُدْ لَهُ أَيَّةُ فائِدَةٍ .»

وَانْطَفَأَ المِصْباحُ وَسادَ الظَّلامُ ، فَأَلْقاهُ كَريمُ الدّينِ عَلى الأَرْضِ

وَحَطَّمَهُ بِقَدَمِهِ ، ثُمَّ طَوَّحَ بِهِ بَعيداً في غَضَبٍ ، وَ واصَلَ السَّيْرَ مُتَرَجِّلاً وَهُوَ يَجُرُّ جَوادَهُ خَلْفَهُ ، وَقَدْ أَطْبَقَ اليَأْسُ عَلَيْهِ .

وَمَرَّتْ ساعاتٌ قَبْلَ أَنْ يوقِنَ مِنْ فَشَلِهِ التّامِّ في مُهِمَّتِهِ ، وَأَحَسَّ بِتَعَبٍ لا مَثيلَ لَهُ حَتّى لَمْ تَعُدْ قَدَماهُ قادِرَتَيْنِ عَلى حَمْلِهِ . وَكادَ الجوعُ الشَّديدُ يَفتِكُ بِهِ ، وَأَصابَهُ العَطَشُ بِالجَفافِ ، فَانْهارَ عَلى الأَرْضِ خائِرَ القُوى هاتِفاً : « لِيُنْقِذْني أَحَدُكُمْ ! إِنَّني أَموتُ جوعاً وَعَطَشاً ! »

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مُجيباً ، فَزَحَفَ مُحاوِلاً البَحْثَ عَنْ طَعامٍ أَوْ شَرابٍ ، وَلَكِنَّ قُوَّتَهُ خارَتْ أَكْثَرَ ، وَلَمْ يَعُدْ بِاسْتِطاعَتِهِ رَفْعُ ذِراعِهِ ، فَانْهارَ فاقِداً الوَعْيَ ، وَلَمْ يَعُدْ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ حَوْلَهُ .

وَبَعْدَ قَليلٍ اقْتَرَبَتْ مَجْموعَةٌ مِنَ الأَقْزامِ الغاضِبينَ ، وَفي صَمْتٍ حَمَلوا كَريمَ الدّينِ فَوْقَ عَرَبَةٍ تَجُرُّها الخُيولُ ، وَتَوَقَّفوا أَمامَ أَبْوابِ قَصْرٍ عَظيمٍ يُغَلِّفُهُ الضَّبابُ ، وَانْفَتَحَتْ أَبْوابُ القَصْرِ لَهُمْ ، فَدَلَفَ الأَقْزامُ راكِبو العَرَبَةِ بِكَريمِ الدّينِ ، وَهُمْ يَحْمِلونَهُ فَوْقَ أَكْتافِهِمْ إِلى الدّاخِلِ ، عَلى حينَ قادَ الباقونَ الجَوادَ إِلى حَظيرَةٍ خاصَّةٍ ، وَقَدَّموا لَهُ الطَّعامَ وَالشَّرابَ .

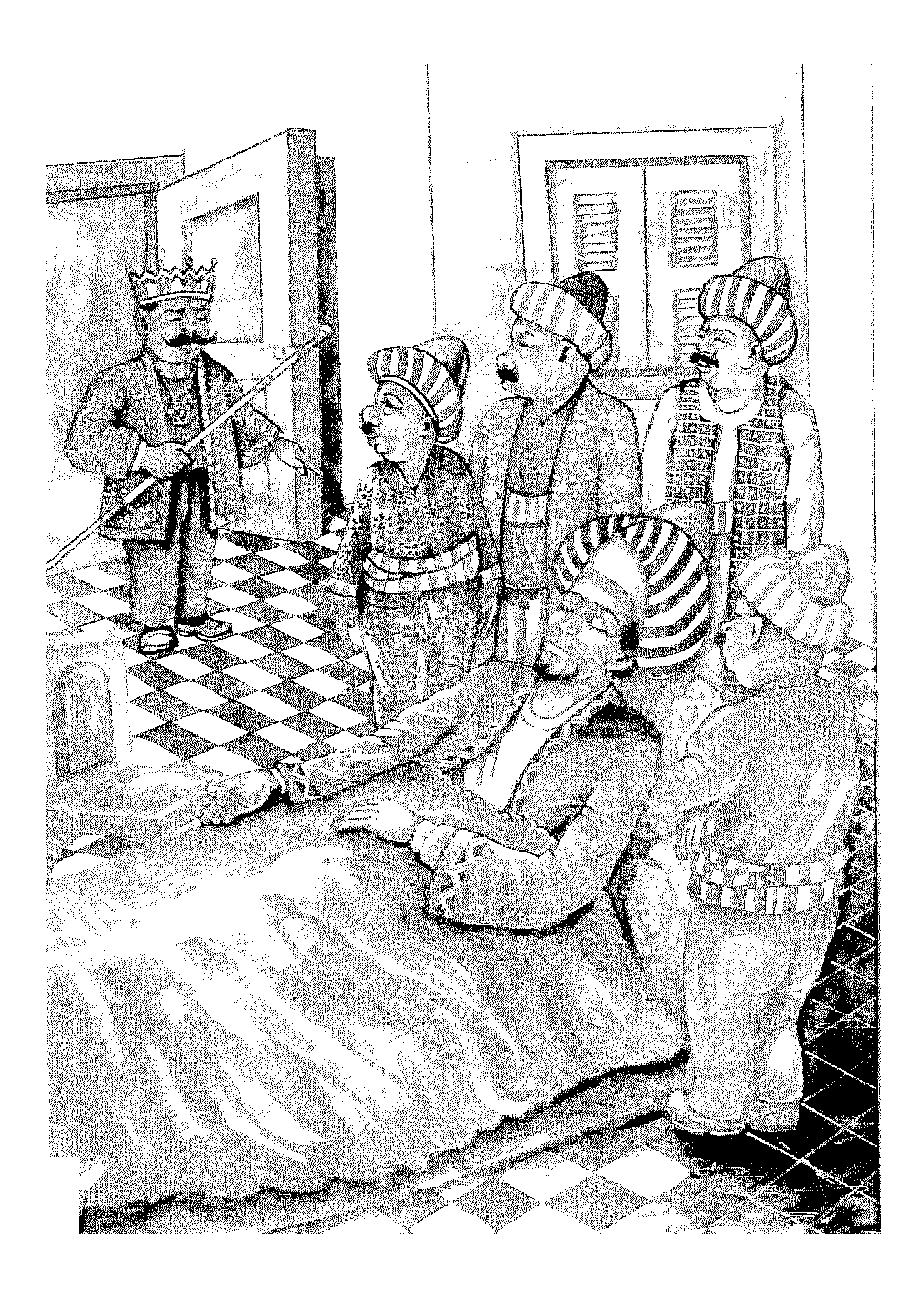
وَانْتَهى الأَقْزامُ إلى قاعَةٍ واسِعَةٍ فَمَدَّدوا كَريمَ الدّينِ فَوْقَ فِراشٍ وَثيرٍ في صَدْرِ القاعَةِ . وَتَقَدَّمَ مِنْ أَحَدِ الأَرْكانِ قَزَمٌ عَجوزٌ لَهُ لِحْيَةٌ بَيْضاءُ طَويلَةٌ تَصِلُ لِرُكْبَتَيْهِ ، وَقَدْ زَيَّنَ رَأْسَهُ بِتاجٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالماسِ، وَأَخَذَ يَرْفُلُ في مَلابِسَ حَريرِيَّةٍ مُوَشّاةٍ بِالذَّهَبِ ، وَقَدْ بَدا واضِحاً أَنَّهُ مَلِكُ الأَقْزامِ .

وَتَطَلَّعَ المَلِكُ إلى كَريمِ الدّينِ غاضِباً وَقالَ بَعْدَ لَحْظَةٍ : « دَعوا الأَطِبّاءَ يَعْتَنوا بِهَذا الشّابِّ ، وَيُرَطِّبوا شَفَتَيْهِ بِالماءِ وَعَصيرِ الفاكِهَةِ ؛ لِكَيْ يَبْقى حَيّاً . وَلَكِنَّهُ بَعْدَ أَنْ يُفيقَ سَوْفَ يَلْقى عِقاباً قاسِياً عَلى فَعْلَتِهِ الشَّنيعَةِ ، وَاسْتيلائِهِ عَلى مِصْباحِ الحِكْمَةِ ، وَتَحْطيمِهِ بِمِثْلِ تِلْكَ الصّورَةِ .»

فَنَفَّذَ أَتْباعُهُ ما قالَهُ .

عِنْدَما أَفاقَ كَريمُ الدّينِ وَجَدَ نَفْسَهُ راقِداً في زِنْزانَةٍ حَديدِيَّةٍ ، داخِلَ قاعَةٍ كَبيرَةٍ مُكْتَظَّةٍ بِالأَقْزامِ .

كانَتِ القاعَةُ أَشْبَهَ بِقاعاتِ المُحاكَمَةِ ، وَقَدْ جَلَسَ ثَلاثَةُ قُضاةٍ إلى المِنَصَّةِ ، وَجَلَسَ قَزَمٌ مَكانَ مُمَثِّلِ الاتِّهامِ ، وَآخَرُ مَكانَ مُمَثِّلِ الدِّفاعِ ، عَلى حينَ جَلَسَ عَشَراتُ الأَقْزامِ في مَقاعِدِ الحاضِرينَ، وَمِنْهُمُ القَزَمُ الَّذي اسْتَوْلى كَريمُ الدّينِ عَلى مِصْباحِهِ الزَّيْتِيِّ .



أمّا المَلِكُ فَجَلَسَ في مَكانٍ خاصٍّ عَلى يَمينِ مِنَصَّةِ القُضاةِ ، فَوْقَ مَقْعَدٍ عالٍ مُرَصَّعٍ بِالياقوتِ وَالماسِ .

دَهِشَ كَريمُ الدّينِ لِحْظَةً وَلَمْ يَدْرِ أَيْنَ هُوَ ، وكانَ آخِرَ ما يَعيهِ اسْتيلاؤُهُ عَلى المِصْباحِ الزَّيْتِيِّ ، وَانْطِفاءُ شُعْلَتِهِ ، وَتَحْطيمُهُ . وَأَدْهَشَهُ أَنَّهُ في صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ لا يُعاني جوعًا وَلا عَطَشًا ، بِرَغْمِ كُلِّ ما لاقاهُ قَبْلَ فِقْدانِهِ وَعْيَهُ ، وَلَمْ يَدْرِ السِّرَّ في ذَلِكَ .

وَلاحَظَ مُمَثِّلُ الاتِّهامِ تَنَبُّهَ كَريمِ الدّينِ ، فَصاحَ بِصَوْتٍ عالٍ: « لَقَدْ أَفاقَ المُتَّهَمُ أَخيرًا . فَلْتَبْدَإِ المُحاكَمَةُ .»

تَطَلَّعَ الجَميعُ إِلَيْهِ عَلى الفَوْرِ ، وَدَقَّ القُضاةُ الثَّلاثُ المِنَصَّةَ بِمَطارِقَ خَشَبِيَّةٍ مُتَشابِهَةٍ في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ ، وَقالوا في صَوْتٍ واحِدٍ رَصينٍ : « لِتَبْدَإِ المُحاكَمَةُ .»

صاحَ كَريمُ الدّينِ غاضِبًا : « ما الَّذي يَدورُ حَوْلي هُنا ؟ هَلْ أَنا مُتَّهَمٌ تُعْقَدُ لي مُحاكَمَةٌ ؟»

قالَ مُمَثِّلُ الاتِّهامِ : « بَلْ إِنَّكَ مُتَّهَمٌ بِأَخْطَرِ تُهْمَةٍ لَدَيْنا ، وَهِيَ سَرِقَتُكَ لِمِصْباحِ الحِكْمَةِ ، وَتَحْطيمُهُ .»

عاوَدَ كَريمُ الدّينِ الصِّياحَ بِصَوْتٍ أَعْلى : « أَيُّ مِصْباحٍ هَذا الَّذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ أَيُّها الخَرِفُ ؟ إِنَّ كُلَّ ما أَخَذْتُهُ مِنْ ذَلِكَ القَزَمِ

الأحْمَقِ مُجَرَّدُ مِصْباحٍ زَيْتِيٍّ بَغيضٍ ، عَرَضْتُ أنْ أدْفَعَ لَهُ مِئَةَ دينارٍ مِنَ الذَّهَبِ ثَمَنًا لَهُ فَرَفَضَ . وَلَمّا كُنْتُ في حاجَةٍ إلَيْهِ ، اضْطُرِرْتُ لأخْذِهِ مِنْهُ قَسْرًا لِكَيْ أغادِرَ هَذِهِ الأرْضَ الضَّبابِيَّةَ .»

صاحَ مُمَثِّلُ الدِّفاعِ بِدَوْرِهِ غاضِبًا : « إنَّكَ بِذَلِكَ قُمْتَ بِأبْشَعِ جَريمَةٍ أيُّها الشّابُّ . فَبِالإضافَةِ إلى اقْتِحامِكَ أرْضَنا دونَ إذْنٍ ، فَقَدْ تَعَدَّيْتَ عَلى حامِلِ مِصْباحِ الحِكْمَةِ وَسَلَبْتَهُ مِنْهُ ، ثُمَّ عامَلْتَ المِصْباحَ في مَهانَةٍ ؛ فَوَطِئْتَهُ بِقَدَمَيْكَ وَحَطَّمْتَهُ .»

كَظَمَ كَريمُ الدّينِ غَيْظَهُ ، وَقالَ : « ما هُوَ إلّا مِصْباحٌ كَأيِّ مِصْباحٍ آخَرَ ، وَلا أدْري لِماذا تولونَهُ كُلَّ هَذِهِ الأهَمِّيَّةِ ، وَتَدْعونَهُ مِصْباحَ الحِكْمَةِ ، وَهُوَ لَيْسَ مِنَ الذَّهَبِ أوِ الفِضَّةِ ؟»

أجابَهُ القُضاةُ الثَّلاثَةُ في صَوْتٍ واحِدٍ : « إنَّ هَذا المِصْباحَ رَمْزٌ لِشَعْبِنا ، تَمامًا كَالعَلَمِ في البُلْدانِ الأخْرى . وَاحْتِرامُ هَذا المِصْباحِ شَيْءٌ مُقَدَّسٌ في حَياتِنا . وَأنْتَ بِما فَعَلْتَهُ احْتَقَرْتَ شَيْئًا نَحْتَرِمُهُ وَنُبَجِّلُهُ ، بِالرَّغْمِ مِنْ أنَّهُ لَيْسَ مَصْنوعًا مِنَ الذَّهَبِ أوِ الفِضَّةِ كَما قُلْتَ .»

قالَ كَريمُ الدّينِ حائِرًا : « إنَّني لا أفْهَمُ شَيْئًا مِمّا يَدورُ حَوْلي ، وَلا أدْري أهَمِّيَّةَ هَذا المِصْباحِ .»

نَهَضَ حامِلُ المِصْباحِ ، وَقالَ لِكَريمِ الدّينِ : « سَأَقُصُّ عَلَيْكَ شَيْئاً رُبَّما يُفَسِّرُ الأَمْرَ لَكَ : مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ عِنْدَما اسْتَقَرَّ أَجْدادُنا الأَقْزامُ في هَذِهِ الأَرْضِ ، مَنَعَهُمُ الضَّبابُ الكَثيفُ مِنَ الرُّؤْيَةِ أَوِ العَمَلِ ؛ فَكادوا يَهْلِكونَ جوعاً وَعَطَشاً ، لَوْلا أَنِ اخْتَرَعَ أَحَدُهُمْ هَذا المِصْباحَ بِخِبْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ؛ فَبَدَّدَ لأَجْدادِنا بَعْضَ الضَّبابِ الكَثيفِ حَوْلَهُمْ ، فَتَعاوَنوا جَميعاً لِصُنْعِ آلافِ المَصابيحِ ، وَزَّعوها في كُلِّ مَكانٍ ، وَصارَ أَجْدادُنا يَسْتَخْدِمونَها لإِنارَةِ أَرْضِهِمْ ، وَالاهْتِداءِ لِطَريقِهِمْ وَسْطَ الضَّبابِ الكَثيفِ .

« وَمَعَ مُرورِ الزَّمَنِ تَطَوَّرَتْ قُدْرَتُنا عَلى الإِبْصارِ ، وَتَكَيَّفَتْ مَعَ هَذا الضَّبابِ ، وَصِرْنا نَسْتَطيعُ الرُّؤْيَةَ خِلالَهُ دونَ مَصابيحَ ، وَلَكِنْ كانَ مِنَ المُسْتَحيلِ عَلَيْنا أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْ تِلْكَ المَصابيحِ الَّتي رافَقَتْنا لِسِنينَ طَويلَةٍ ، وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ فَإِنَّها صارَتْ بِلا جَدْوى بِسَبَبِ تَطَوُّرِ أَساليبِ الإِبْصارِ ، وَقُدْرَتِنا عَلى الرُّؤْيَةِ في الضَّبابِ .

« وَلِهَذا فَكَّرَ أَحَدُ حُكَمائِنا في أَنْ نَحْتَفِظَ بِمِصْباحٍ وَحيدٍ مِنْ تِلْكَ المَصابيحِ ؛ لِيَكونَ رَمْزاً لِحِكْمَةِ الأَجْدادِ وَعِلْمِهِمْ ، وَلِكَيْ لا يَنْسى شَعْبُ الأَقْزامِ أَنَّ هَذِهِ الحِكْمَةَ وَالمَعْرِفَةَ هِيَ الَّتي أَبْقَتْهُمْ أَحْياءً حَتّى اليَوْمِ .»

بانَتِ الدَّهْشَةُ عَلى وَجْهِ كَريمِ الدِّينِ ، وَقالَ : « هَذا أَمْرٌ غَرِيبٌ ! وَحَتّى إذا كانَ صَحيحاً فَلِماذا كانَ ذَلِكَ القَزَمُ يَدورُ باحِثاً عَنِ الحِكْمَةِ بِهَذا المِصْباحِ ؟ إنَّ الحِكْمَةَ لَيْسَتْ شَيْئاً مُخْتَفِياً في الظَّلامِ ، يَتِمُّ البَحْثُ عَنْهُ تَحْتَ ضَوْءِ المَصابيحِ .»

أجابَهُ القُضاةُ الثَّلاثَةُ في صَوْتٍ واحِدٍ رَصينٍ : « أَنْتَ عَلى حَقٍّ فيما قُلْتَهُ . وَلَكِنْ ما كانَ يَفْعَلُهُ حامِلُ مِصْباحِ الحِكْمَةِ هُوَ رَمْزٌ أَيْضاً ؛ لِكَيْ لا يَنْسى شَعْبُنا الحِكْمَةَ الَّتي أَنْقَذَتْهُ مِنَ الفَناءِ ، فَيَضَعوها نُصْبَ عُيونِهِمْ ، وَيَبْحَثوا عَنْها لَيْلَ نَهارَ ، فَتَكونَ دُسْتورَهُمْ وَقانونَهُمْ ؛ فَالحِكْمَةُ هِيَ الشَّيْءُ الوَحيدُ القادِرُ عَلى اخْتِراقِ حُجُبِ الظَّلامِ ، وَإِنارَةِ بَصيرَةِ الإنْسانِ وَعَقْلِهِ . فَهَلْ أَدْرَكْتَ الآنَ أَيَّ خَطَأٍ ارْتَكَبْتَهُ ، أَيُّها الشّابُّ ، لِقِلَّةِ حِكْمَتِكَ وَتَبَصُّرِكَ ؟»

نَكَّسَ كَريمُ الدّينِ رَأْسَهُ في أَسَفٍ ، وَقالَ : « إِنَّني أَعْتَرِفُ بِخَطَئي وَتَهَوُّري ؛ فَإِنَّني – كَما قُلْتُمْ تَماماً أَيُّها القُضاةُ المُوَقَّرونَ – تَنْقُصُني هَذِهِ الحِكْمَةُ ، بِرَغْمِ كُلِّ ما تَعَلَّمْتُهُ في رِحْلَتي الطَّويلَةِ ، سَعْياً لِلْوُصولِ إلى جَبَلِ الحِكْمَةِ .»

هَبَّ القُضاةُ الثَّلاثَةُ واقِفينَ في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ ، وَقالوا : « وَلَكِنَّ اعْتِرافَكَ بِالخَطَأِ لا يَمْحوهُ . وَمِنْ ثَمَّ يَجِبُ أَنْ تَدْفَعَ ثَمَناً غالِياً لَها ؛

لِكَيْ تَكونَ أَكْثَرَ حِكْمَةً في المَرَّةِ القادِمَةِ ، وَلِكَيْ لا تَنْدَفِعَ خَلْفَ تَهَوُّرِكَ أَيُّها الطّائِشُ ؛ وَلِهَذا حَكَمْنا عَلَيْكَ ، حَسَبَ قانونِنا ، بِالسِّجْنِ عِشْرينَ عاماً .»

صَرَخَ كَريمُ الدّينِ : « لا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَسْجُنوني كُلَّ هَذِهِ السِّنينَ .»

وَفاضَتْ عَيْناهُ بِالدُّموعِ وَهُوَ يَعَضُّ شَفَتَهُ نَدَماً عَلى ما فَعَلَهُ .

الفصل العاشر

بُلوغُ جبَلِ الحِكْمَةِ

نَهَضَ مُمَثِّلُ الدِّفاعِ ، وَقالَ : « مَوْلايَ المَلِكَ ، إنَّ المُتَّهَمَ يَلْتَمِسُ عَطْفَكَ وَرِعايَتَكَ لِتَخْفيفِ الحُكْمِ الصّادِرِ ضِدَّهُ ؛ لأَنَّهُ كانَ جاهِلاً بِقَوانينِنا وَرَمْزِ حِكْمَتِنا .»

قالَ المَلِكُ عابِساً : « إنَّ الجَهْلَ بِالقانونِ لا يُعْفي مِنَ العُقوبَةِ ، وَلَكِنّي مُسْتَعِدٌّ لِتَخْفيضِ مُدَّةِ السِّجْنِ لِلنِّصْفِ ، إذا اسْتَطاعَ هَذا الشّابُّ تَعْليمَ عَشَرَةِ أَقْزامٍ القِراءَةَ وَالكِتابَةَ .»

هَتَفَ كَريمُ الدّينِ وَقَدْ حَيا الأَمَلُ في صَدْرِهِ : « إنَّني مُسْتَعِدٌّ لِذَلِكَ أَيُّها المَلِكُ ، وَلَكِنَّ عَشْرَ سَنَواتٍ سَجْناً مُدَّةٌ طَويلَةٌ ؛ لَنْ أَسْتَطيعَ احْتِمالَها .»

عَبَثَ المَلِكُ بِأَصابِعِهِ القَصيرَةِ في لِحْيَتِهِ الطَّويلَةِ ، وَقالَ : « يُمْكِنُني تَخْفيضُ هَذِهِ السَّنَواتِ العَشْرِ لِلنِّصْفِ أَيْضاً ؛ إذا عَلَّمْتَ

هَؤُلاءِ الأَقْزامَ بِجانِبِ القِراءَةِ وَالكِتابَةِ ، الحِكْمَةَ وَالأَدَبَ وَالتَّاريخَ ، مُسْتَعيناً بِمَكْتَبَةِ الأَقْزامِ ، الَّتي تَحْوي آلافاً مِنْ كُتُبِ التُّراثِ وَالحِكْمَةِ وَالأَدَبِ .»

حَيا الأَمَلُ في نَفْسِ كَريمِ الدّينِ أَكْثَرَ ، وَصاحَ : « إِنَّني مُسْتَعِدٌّ لِذَلِكَ ، يا مَوْلايَ . وَلَكِنَّ السِّجْنَ خَمْسَ سَنَواتٍ مُدَّةٌ طَويلَةٌ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ لي .»

نَهَضَ المَلِكُ قائِلاً : « في هَذِهِ الحالَةِ لا يَكونُ أَمامَكَ غَيْرُ تَعْليمِ هَؤُلاءِ الأَقْزامِ - بِالإِضافَةِ إِلى ما سَبَقَ - اللُّغَةَ اليونانِيَّةَ ، فَتَقْضي في السِّجْنِ نِصْفَ السَّنَواتِ الخَمْسِ فَقَطْ . أَمّا إِذا عَلَّمْتَهُمُ الفارِسِيَّةَ أَيْضاً ، فَسَتُصْبِحُ عُقوبَتُكَ خَمْسَةَ عَشَرَ شَهْراً فَقَطْ . وَفي هَذِهِ الحالَةِ سَتَكونُ مُدَّةُ قَضائِكَ العُقوبَةَ داخِلَ مَكْتَبَةِ قَصْري وَلَيْسَ في السِّجْنِ ؛ لأَنَّنا لا نَسْمَحُ لإِنْسانٍ يُعَلِّمُ أَبْناءَنا العُلومَ النّافِعَةَ بِدُخولِ السِّجْنِ .»

أَشْرَقَ وَجْهُ كَريمِ الدّينِ ، وَقالَ : « إِنَّني مُوافِقٌ أَيُّها المَلِكُ الكَريمُ . وَسَوْفَ أَقومُ بِتَعْليمِ عَشَرَةِ أَقْزامٍ كُلَّ هَذِهِ الأَشْياءِ في المَوْعِدِ المَضْروبِ .»

وَأَمَرَ المَلِكُ فَرُفِعَتِ الجَلْسَةُ ، وَتَمَّ إِخْراجُ كَريمِ الدّينِ مِنَ السِّجْنِ ، وَذَهَبَ بِهِ الحارِسُ إِلى مَكْتَبَةِ القَصْرِ ، وَتَمَّ اخْتِيارُ عَشَرَةِ

أقْزام يَجْهَلونَ القِراءَةَ وَالكِتابَةَ ؛ لِيَبْدَأَ كَريمُ الدِّين تَعْليمَهُمْ .

وَضَعَ كَريمُ الدِّين خُطَّةً لِنَفْسِهِ ، فَأَخَذَ يَدْرُسُ في أَوْقاتِ فَراغِهِ كُلَّ كُتُبِ الحِكْمَةِ وَالآدابِ وَالتّاريخِ بِمَكْتَبَةِ القَصْرِ ، وَيَنْهَلُ مِنْها في شَغَفٍ ، فاسْتَوْعَبَها تَماماً .

وَعِنْدَما أَتَمَّ تَعليمَ الأَقْزامِ العَشَرَةِ القِراءَةَ وَالكِتابَةَ خِلالَ أَسابيعَ قَليلَةٍ ، كانَ جاهِزاً لِتَلْقينِهِمْ دُروسَ الحِكْمَةِ وَالآدابِ وَالتّاريخِ . وَخِلالَ ذَلِكَ الوَقْتِ وَضَعَ خُطَّةً أُخرى لإِكْمالِ مُهِمَّتِهِ ، فَقَدْ كانَ يَجْهَلُ اللُّغاتِ الأَجْنَبِيَّةَ : اليونانِيَّةَ وَالفارِسِيَّةَ وَغَيْرَهُما ، وَكانَ عَلَيْهِ تَعَلُّمُها قَبْلَ أَنْ يَقومَ بِتَدْريسِها لِتَلاميذِهِ ، فَانْكَبَّ عَلى كُتُبِ اللُّغاتِ في غَيْرِ أَوْقاتِ التَّدْريسِ ، وَأَخَذَ يَسْتَذْكِرُها وَيَسْتَوْعِبُ مُفْرَداتِ كَلِماتِها وَقَواعِدَها ، حَتّى أَتْقَنَها في وَقْتٍ قِياسِيٍّ ، بِسَبَبِ تَحَمُّسِهِ لِدِراسَتِها ، وَحُبِّهِ لَها .

وَعِنْدَما أَجادَها تَماماً ، قالَ لِنَفْسِهِ في أَسَفٍ : « لَيْتَني تَعَلَّمْتُ هَذِهِ اللُّغاتِ مِنْ قَبْلُ ؛ فَإِنَّني أَشْعُرُ أَنَّ مَعْرِفَتي وَقيمَتي تَضاعَفَتْ بِها، كَما حَدَثَ لي عِنْدَما اسْتَوْعَبْتُ الآدابَ وَالحِكْمَةَ وَالتّاريخَ . وَلِحُسْنِ الحَظِّ أَتاحَتْ لي هَذِهِ الفُرْصَةُ دِراسَتَها رَغْماً عَنّي !»

وَعِنْدَما انْتَهى مِنْ تَلْقينِ دُروسِ الحِكْمَةِ وَالتّاريخِ وَالآدابِ لِتَلاميذِهِ العَشَرَةِ خِلالَ أَشْهُرٍ قَليلَةٍ ، كانَ قَدْ أَجادَ اللُّغَتَيْنِ اليونانِيَّةَ وَالفارِسِيَّةَ ،

فَأَخَذَ يُعَلِّمُهُما لِتَلاميذِهِ في مَهارَةٍ وَبَلاغَةٍ . وَصارَ يَقْطَعُ في دُروسِهِ لَهُمْ عَشَرَةَ أَضْعافِ ما كانَ يَقْطَعُهُ المُعَلِّمونَ الآخَرونَ .

وَعِنْدَما انْتَهَتِ الشُّهورُ الخَمْسَةَ عَشَرَ كانَ كَريمُ الدّينِ قَدِ انْتَهى مِنْ مُهِمَّتِهِ ، في تَعْليمِ الأَقْزامِ العَشَرَةِ اللُّغَتَيْنِ .

وَفي اخْتِبارٍ عَقَدَهُ حُكَماءُ الأَقْزامِ لامْتِحانِ الأَقْزامِ العَشَرَةِ ، أَجابَ هَؤُلاءِ الأَقْزامُ بِإِجاباتٍ رائِعَةٍ ، عَنْ كُلِّ الأَسْئِلَةِ الَّتي وُجِّهَتْ لَهُمْ في الآدابِ وَالتّاريخِ وَالحِكْمَةِ ، وَنَطَقوا بِلِسانٍ سَليمٍ أَشْعاراً مِنَ الفارِسِيَّةِ وَاليونانِيَّةِ ، وَحَلّوا أَلْغازَ قَواعِدِهِما وَأَسْرارَ بَلاغَتِهِما ؛ فَسُرَّ مُمْتَحِنوهُمْ لِذَلِكَ ، وَمَنَحوهُمْ شَهاداتِ تَفَوُّقٍ ؛ فَسَعِدَ كَريمُ الدّينِ بِذَلِكَ ، وَفاضَتْ عَيْناهُ بِدُموعِ الفَرْحَةِ بَعْدَ نَجاحِهِ في مُهِمَّتِهِ . وَاسْتَقْبَلَهُ مَلِكُ الأَقْزامِ في بَشاشَةٍ ، وَقالَ لَهُ :

« لَقَدْ نَجَحْتَ في مُهِمَّتِكَ نَجاحاً باهِراً ، أَيُّها الشّابُّ ، وَأَظْهَرْتَ حِكْمَةً وَتَفَوُّقاً في تَعْليمِ تَلاميذِكَ ، فَمَحَوْتَ بِذَلِكَ خَطَأَكَ الأَوَّلَ . وَلا يَسَعُنا غَيْرُ الاعْتِرافِ بِفَضْلِكَ ؛ لأَنَّ تَلاميذَكَ العَشَرَةَ سَيَصيرونَ مُعَلِّمينَ أَيْضاً ، وَسَيَقومونَ بِتَعْليمِ غَيْرِهِمْ ما تَعَلَّموهُ مِنْكَ ، فَتَتَّسِعُ دائِرَةُ الاسْتِفادَةِ مِنْ عَمَلِكَ الطَّيِّبِ .»

أَحْنى كَريمُ الدّينِ رَأْسَهُ لِمَلِكِ الأَقْزامِ ، وَقالَ لَهُ : « أَنا أَيْضاً

أشْكُرُكَ أيُّها المَلِكُ ؛ لأنَّكَ أتَحْتَ لي هَذِهِ الفُرْصَةَ لِكَيْ أعَلِّمَ نَفْسي أوَّلاً ؛ فَلَمْ أكُنْ أظُنُّ أنَّ الكُتُبَ تَحْوي كُلَّ هَذِهِ الحِكْمَةِ وَالمَعارِفِ ؛ فَأنا المَدينُ لَكَ بِالشُّكْرِ ، يا مَوْلايَ ؛ فَلَوْلا حُكْمُكَ الصّائِبُ ، لَضاعَتْ سِنو عُمْري هَباءً في السِّجْنِ ، وَلَخَسِرْتُ مَعارِفَ عَديدَةً وَعُلوماً ثَمينَةً .»

هَزَّ المَلِكُ رَأسَهُ في سُرورٍ ، وَقالَ : « لِهَذا أسْمَوْا أرْضَنا بِأرْضِ الحِكْمَةِ ؛ لأنَّنا نُغَلِّبُ الحِكْمَةَ في كُلِّ نَواحي حَياتِنا . وَحَتّى في قِمَّةِ غَضَبِنا ، تَتَغَلَّبُ حِكْمَتُنا عَلى غَضَبِنا ، كَما حَدَثَ مَعَكَ . وَالآنَ ، أنْتَ حُرٌّ ، يا كَريمَ الدّينِ ، وَتَسْتَطيعُ مُغادَرَةَ أرْضِنا وَقْتَما تَشاءُ ، وَسَيَقودُكَ بَعْضُ الأقْزامِ إلى جَبَلِ الحِكْمَةِ ؛ فَقَدْ صِرْتَ جَديراً لِبُلوغِ قِمَّتِهِ .»

شَكَرَ كَريمُ الدّينِ المَلِكَ ، وَامْتَطى جَوادَهُ الأشْهَبَ ، وَسارَ وَسْطَ كَوْكَبَةٍ مِنْ فُرْسانِ الأقْزامِ ، قادوهُ خِلالَ نَهارٍ كامِلٍ إلى خارِجِ أرْضِ الأقْزامِ الَّتي يُحيطُها الضَّبابُ . وَبَعْدَ أنِ اجْتازوها تَجَلّى لِعَيْنَيْ كَريمِ الدّينِ – أخيراً – ما كانَ يَسْعى إلَيْهِ : جَبَلُ الحِكْمَةِ الشّامِخُ.

كانَ مَنْظَرُ الجَبَلِ مَهيباً ، يُثيرُ الرَّجْفَةَ في الأبْدانِ ؛ فَقِمَّتُهُ تَرْتَفِعُ إلى ما يُقارِبُ السَّحابَ ، وَتَنْتَشِرُ الحَدائِقُ وَالأزْهارُ وَالرَّياحينُ فَوْقَ مُدَرَّجاتِهِ ، وَتَتَساقَطُ المِياهُ العَذْبَةُ مِنْ عُيونٍ خَفِيَّةٍ ، وَتَتَدَلّى الثِّمارُ

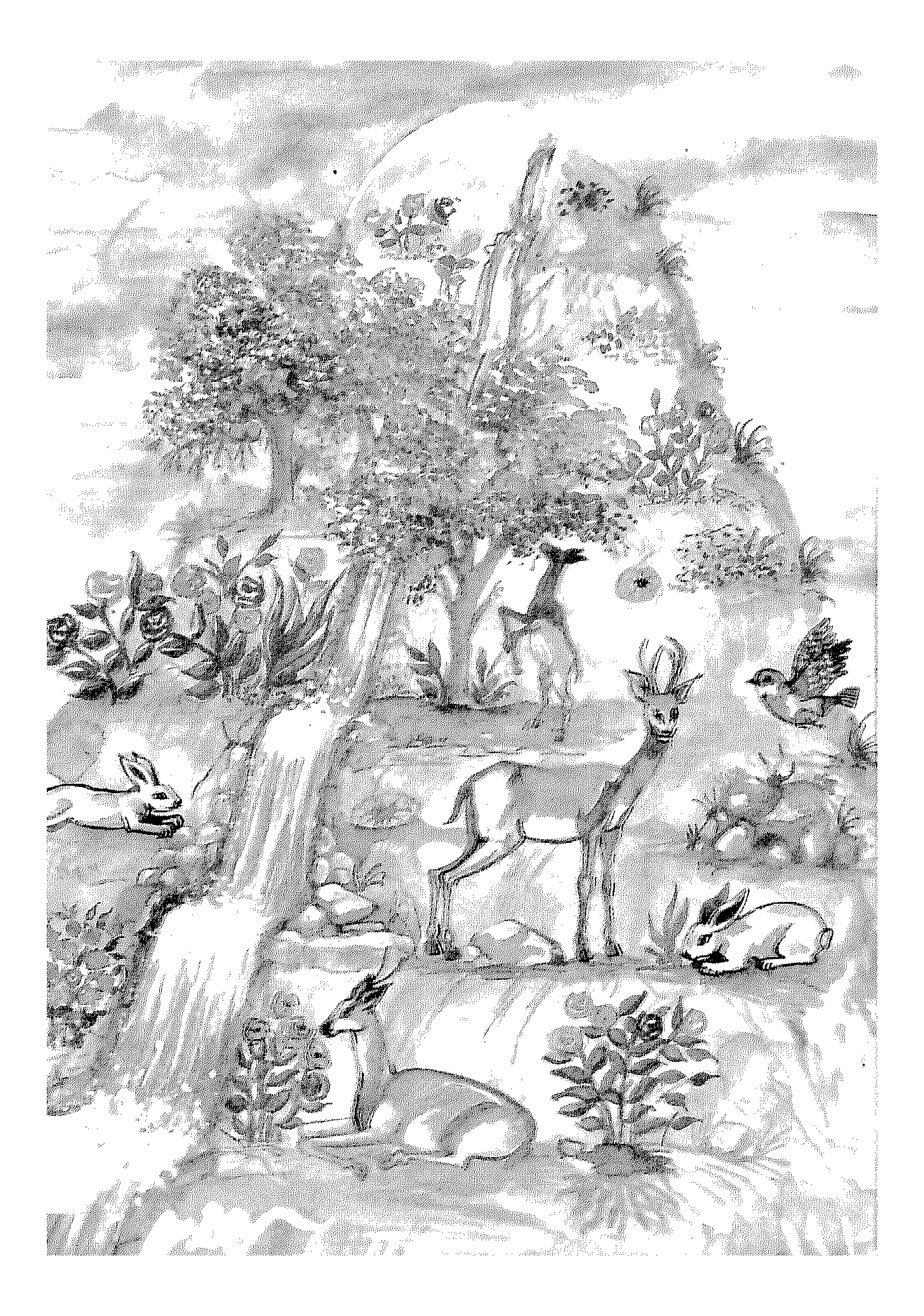
دانِيَةَ القُطوفِ مِنْ فَوْقِ أشْجارِهِ المُتَنَوِّعَةِ ، عَلى حينِ تَمْرَحُ الغِزْلانُ وَالأرانِبُ البَرِّيَّةُ فَوْقَ صُخورِهِ وَأحْجارِهِ .

تَأمَّلَ كَريمُ الدّين المَشْهَدَ الرّائِعَ أمامَهُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ ، وَقالَ لِنَفْسِهِ: « ما أرْوَعَ مَنْظَرَ هَذا الجَبَلِ ! إنَّهُ مَشْهَدٌ لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ عَيْنايَ مِنْ قَبْلُ، وَقَدِ اشْتاقَتْ نَفْسي كَثيراً لِصُعودِ قِمَّتِهِ وَمُقابَلَةِ النّاسِكِ المُتَعَبِّدِ .»

وَهَبَطَ مِنْ فَوْقِ جَوادِهِ ، وَرَبَّتَ فَوْقَ مَعْرَفَتِهِ قائِلاً : « اِنْتَظِرْني هُنا ، يا أشْهَبُ ، وَلا تَقْلَقْ مِنَ البَقاءِ مَهْما طالَ انْتِظارُكَ ؛ فَإنَّ لي مَعَ ساكِنِ هَذا الجَبَلِ حَديثاً طَويلاً .»

وَفي الحالِ بَدَأ كَريمُ الدّينِ تَسَلُّقَ الجَبَلِ إلى أنْ حَلَّ اللَّيْلُ ، فَاقْتَطَفَ بَعْضَ ثَمَراتِ أشْجارِهِ ، وَنَهِلَ مِنْ مِياهِهِ العَذْبَةِ ، وَرَقَدَ في اللَّيْلِ وَسَطَ حَديقَةٍ بَديعَةٍ مِنَ الأزْهارِ الفَوّاحَةِ . وَفي الصَّباحِ واصَلَ مُهِمَّتَهُ ، فَبَلَغَ قِمَّةَ الجَبَلِ عِنْدَ غُروبِ الشَّمْسِ . وَ وَجَدَ كَريمُ الدّين مُفاجَأةً أكْثَرَ إثارَةً في انْتِظارِهِ !

كانَتْ قِمَّةُ الجَبَلِ عامِرَةً بِالحَيَواناتِ المُخْتَلِفَةِ : أسودٍ وَنُمورٍ وَذِئابٍ وَضِباعٍ وَثَعالِبَ ، تَرْقُدُ بِجِوارِها غِزْلانٌ وَأرانِبُ بَرِّيَّةٌ وَخِرافٌ وَشِياهٌ وَديعَةٌ ، وَقَدْ تَآلَفَتِ الوُحوشُ مَعَ الحَيَواناتِ المُسالِمَةِ ، فَأخَذَتْ



تَتَمَسَّحُ بَعْضُها بِبَعْضٍ ، وَتَلْهو مَعاً ، دونَ أنْ تَخْشى الحَيَواناتُ الأليفَةُ مِنْ رَفيقاتِها الكاسِرَةِ . وَعَلى مَقْرُبَةٍ كانَ الحَمامُ وَاليَمامُ يُرَفْرِفُ عالِياً ، تُرافِقُهُ الصُّقورُ وَالنُّسورُ ، دونَ أنْ تُحاوِلَ الطُّيورُ الكاسِرَةُ الْتِهامَ أوْ إيذاءَ رَفيقاتِها الأليفَةِ .

تَعَجَّبَ كَريمُ الدّينِ مِنَ المَشْهَدِ الَّذي رَآهُ أمامَهُ ، وَهَتَفَ لِنَفْسِهِ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « إنَّني أشْعُرُ كَأنَّني في حُلْمٍ ! كَيْفَ تَمَكَّنَ هَذا النّاسِكُ المُتَعَبِّدُ مِنْ جَعْلِ الوُحوشِ تَتَآلَفُ مَعَ الحَيَواناتِ الأليفَةِ ، وَالصُّقورِ وَالنُّسورِ تُصادِقُ الطُّيورَ الوَديعَةَ ، دونَ أنْ تُحاوِلَ إيذاءَها ؟»

وَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ باحِثاً عَنِ النّاسِكِ المُتَعَبِّدِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ عَلَيْهِ ، وَلَمْ تَقَعْ عَيْناهُ عَلى أيِّ مَسْكَنٍ أوْ كوخٍ لَه فَوْقَ قِمَّةِ الجَبَلِ ، فَتَساءَلَ دَهِشاً : « أيْنَ اخْتَفى هَذا النّاسِكُ المُتَعَبِّدُ ؟» وَشاهَدَ الطُّيورَ الأليفَةَ وَهِيَ تَلْتَقِطُ الزُّهورَ بِمَناقيرِها وَتُلْقيها في بُقْعَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، فَاقْتَرَبَ دَهِشاً مِنْ ذَلِكَ المَكانِ لِيَسْتَكْشِفَهُ .

وَتَوَقَّفَ مَذْهولاً عِنْدَما شاهَدَ قَبْراً صَغيراً يَرْتَفِعُ قَليلاً عَنِ الأرْضِ، وَفي نِهايَتِهِ شاهِدٌ مِنَ الرُّخامِ ، وَقَدْ نُقِشَتْ فَوْقَهُ كَلِماتٌ بِحُروفٍ دَقيقَةٍ . وَانْحَنى كَريمُ الدّينِ عَلى الشّاهِدِ يَقْرَأُ الكَلِماتِ المَنْقوشَةَ فَوْقَهُ في صَوْتٍ خَفيضٍ :

« هُنا يَرْقُدُ النّاسِكُ المُتَعَبِّدُ للهِ رَقْدَتَهُ الأبَدِيَّةَ . فَيا أيُّها الغَريبُ

القادِمُ مِنْ بِلادٍ بَعيدَةٍ ، إنْ كُنْتَ قَدْ جِئْتَ تَسْعى طالِبًا لِلْمَعْرِفَةِ وَالحِكْمَةِ الَّتي تُحَوِّلُ النُّحاسَ وَالقَصْديرَ وَالتُّرابَ إلى ذَهَبٍ ، فَقَدْ بَلَغْتَها ؛ فَما مِنْ إنْسانٍ يَسْتَطيعُ الوُصولَ إلى هَذا المَكانِ ، إلا إذا كانَ قَدِ امْتَلَكَ الحِكْمَةَ وَالمَعْرِفَةَ وَالعُلومَ وَالمَهارَةَ ، الَّتي تُحَوِّلُ تَوافِهَ الأشْياءِ بَيْنَ أصابِعِهِ إلى ذَهَبٍ . وَتَذَكَّرْ أيُّها الإنْسانُ – وَالذِّكْرى تَنْفَعُ المُؤْمِنينَ – أنَّهُ لَيْسَ بِالذَّهَبِ وَحْدَهُ يَحْيا الإنسانُ .»

فاضَتْ عَيْنا كَريمِ الدّينِ بِالدُّموعِ ، وَهَمَسَ قائِلاً : « صَدَقْتَ أيُّها النّاسِكُ الصّالِحُ ؛ فَلَيْسَ بِالذَّهَبِ وَحْدَهُ يَحْيا الإنْسانُ ؛ فَإنَّ الحِكْمَةَ وَالمَعْرِفَةَ الَّتي تَوَصَّلْتُ إلَيْها بَعْدَ عَناءٍ – أرْشَدَتْني إلى ذَلِكَ أيْضًا . وَلَوْ أنَّني طالَعْتُ ما تَرَكَهُ لي أبي مِنْ كُتُبٍ ، وَحاوَلْتُ الاسْتِفادَةَ مِنْها ؛ لَوَفَّرْتُ عَلى نَفْسي مَشَقَّةً كَبيرَةً وَمَخاطِرَ جَمَّةً ، سَعْيًا لِلْوُصولِ إلى هَذِهِ الحِكْمَةِ .»

وَاقْتَطَفَ كَريمُ الدّينِ بَعْضَ الزُّهورِ وَالرَّياحينِ ، وَ وَضَعَها أمامَ شاهِدِ القَبْرِ . وَقَضى لَيْلَتَهُ ساهِرًا مُتَفَكِّرًا في رِحْلَتِهِ الشّاقَّةِ الَّتي اسْتَغْرَقَتْ وَقْتًا طَويلاً ، وَالنَّتيجَةِ الَّتي انْتَهَتْ إلَيْها .

وَفي الفَجْرِ بَدَأَ هُبوطَهُ الجَبَلَ ، وَقُرابَةَ الظُّهْرِ وَصَلَ إلى مَكانِ جَوادِهِ ، فَامْتَطاهُ قائِلاً : « هَيّا بِنا ، يا أشْهَبُ ، فَقَدْ حانَ أوانُ رَحيلي وَعَوْدَتي إلى وَطَني .»

وَاسْتَغْرَقَتْ رِحْلَةُ عَوْدَةِ كَرِيمِ الدّينِ شُهوراً طَويلَةً ، أَنْفَقَ فيها ما تَبَقّى مَعَهُ مِنْ دَنانيرَ ذَهَبِيَّةٍ ، حَتّى بَلَغَ وَطَنَهُ في النِّهايَةِ ، فَشَعَرَ بِسَعادَةٍ غامِرَةٍ حينَ وَجَدَ أَنَّ وَكيلَهُ لا يَزالُ يَحْتَفِظُ لَدَيْهِ بِكُتُبِ والِدِهِ رَئيسِ التُّجّارِ حَكيمِ الدّينِ ، فَاسْتَعادَها مِنْهُ ، ثُمَّ بَدَأَ عَمَلَهُ أَجيراً .

وَعِنْدَما ادَّخَرَ قَليلاً مِنَ المالِ اسْتَثْمَرَهُ في التِّجارَةِ . فَلَمّا تَوَفَّرَ لَهُ مَزيدٌ مِنَ المالِ اشْتَرى بِهِ بَضائِعَ كَثيرَةً ، وَاسْتَأْجَرَ سَفينَةً كَبيرَةً اسْتَخْدَمَها في التَّنَقُّلِ بَيْنَ البِلادِ وَالبِحارِ . وَبِفَضْلِ مَهارَتِهِ وَخِبْرَتِهِ نَمَتْ تِجارَتُهُ وَزادَتْ أَرْباحُهُ خِلالَ وَقْتٍ قَصيرٍ ؛ فَأَصابَ ثَراءً عَظيماً ، وَاسْتَعادَ كَرِيمُ الدّينِ كُلَّ ما كانَ قَدْ وَرِثَهُ عَنْ أَبيهِ وَبَدَّدَهُ مِنْ قَبْلُ . وَتَضاعَفَ مالُهُ أَكْثَرَ مِمّا كانَ لِوالِدِهِ ، فَاخْتارَهُ كُلُّ التُّجّارِ رَئيساً لَهُمْ ، وَصارَ مَضْرِبَ الأَمْثالِ في المَعْرِفَةِ وَالحِكْمَةِ .

وَأَخَذَ كَرِيمُ الدّينِ يَتَصَدَّقُ مِنْ مالِهِ عَلى الفُقَراءِ وَالمُحْتاجينَ ، وَكُلَّما تَصَدَّقَ أَكْثَرَ اتَّسَعَ رِزْقُهُ ، كَأَنَّما يَأْبى المالُ إِلا أَنْ يَعودَ لَهُ مُضاعَفاً . ثُمَّ تَزَوَّجَ بِفَتاةٍ صالِحَةٍ أَنْجَبَتْ لَهُ أَطْفالاً عَديدينَ ، أَخَذَ يُلَقِّنُهُمْ كُلَّ عُلومِهِ وَمَعارِفِهِ ، وَهُوَ يَحْرِصُ عَلى ذَلِكَ ، أَكْثَرَ مِنْ حِرْصِهِ عَلى تَنْمِيَةِ مالِهِ وَاسْتِزادَتِهِ . وَكانَ يَقولُ لِنَفْسِهِ :

« صَدَقْتَ أَيُّها النّاسِكُ المُتَعَبِّدُ ؛ فَلَيْسَ بِالذَّهَبِ وَحْدَهُ يَحْيا الإِنْسانُ ؛ فَإِنَّ بُلوغَ الحِكْمَةِ وَالمَعْرِفَةِ وَسَكينَةَ القَلْبِ ، وَغَرْسَ الفَضائِلِ وَالقِيَمِ السّامِيَةِ في الأَبْناءِ لأَهَمُّ مِنْ ذَهَبِ العالَمِ كُلِّهِ.»

المغامرات المثيرة

١ – مغامرة في الأدغال
٢ – مغامرة في الفضاء
٣ – مغامرة أسيرين
٤ – مغامرة في الجزيرة الخضراء
٥ – مغامرة على الشاطئ
٦ – الجاسوس الطائر
٧ – لصوص الطريق
٨ – حمد الغواص الشجاع
٩ – اللصان الغبيان
١٠ – مطاردة لصوص السيارات
١١ – مغامرات السندباد البحري
١٢ – لعبة خطرة
١٣ – الحشرة الذهبية وقصص أخرى
١٤ – اللؤلؤة السوداء
١٥ – سر الجزيرة
١٦ – مغامرة في النهر
١٧ – شبح الحديقة وقصص أخرى
١٨ – سر الدرجات التسع والثلاثين
١٩ – الجاسوس و قصص أخرى
٢٠ – مغامرات توم سوير
٢١ – المختطف
٢٢ – الكمبيوتر الرهيب
٢٣ – الأميرة المتوحشة وقصتان أخريان
٢٤ – موسيقى الليل وقصتان أخريان
٢٥ – الناب الأبيض
٢٦ – موبي دِك
٢٧ – سر القط ال
٢٨ – سجين زند
٢٩ – مغامرات ه
٣٠ – الفرسان الث

٣١ – رحلة كريم الدين